ظاهرة التحول الأسلوبي بالعدول عن المقابل والمماثل في السياق القرآني

(دراسة بلاغية)

الدكتور

رمضان عاشور أبو زيد محمد

مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بجرجا

العدد الثاني والعشرون

للعام ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

الجزء الثالث

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٨م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050

ملخص

ظاهرة التحول الأسلوبي بالعدول عن المقابل والمماثل في السياق القرآني (دراسة بلاغية)

بالنظر والتأمل فى الأسلوب القرآنى- خاصة فى الحديث عن الصور المتقابلة- لفت نظرى خروج الأسلوب عما تقتضيه المقابلة ، وما يترقبه السامع أو القارئ ، وما يستدعيه ظاهر النظم من المجئ على صورة يتحقق بها التقابل ، فإن النظم يتحول من هذا الأسلوب المرتقب ، ويعدل إلى أسلوب آخر غير متوقع ، وكذلك عندما يكون المتوقع والمترقب والمنتظر فى السياق أن يأتى الأسلوب فى صورة مماثلة لما جاء عليه النظم فى الصورة الأولى لاشتراك بين الصورتين ، تجد التحول فى الأسلوب والعدول عن المماثلة فى النظم ، والخروج عما يقتضيه الظاهر، وتستوجبه المماثلة .

وإذا اتفقنا أن التحول الأسلوبى بالعدول عن المقابل أو المماثل ظاهرة أسلوبية ، فإن الظاهرة تتطلب فى منهج دراستها المنهج الوصفى التحليلى ، الذى يقف على الظاهرة ويصفها ويحللها بالوقوف على الأسلوب الذى عدل إليه ، وسر إيثاره واختياره عن الأساليب البديلة المعدول عنها ، وبيان ما يحمله هذا الأسلوب المختار الذى جاء على خلاف المترقب والمتوقع من دلالات ومقاصد لا يمكن أن يؤديها الأسلوب الأول المعدول عنه، وهذا هو المنهج الذى سار عليه القدماء فى دراستهم للأساليب المختارة من بين البدائل المتاحة والمطروحة ، والمنتقل فيها من أسلوب إلى آخر، وهو المنهج ذاته الذى ستسير عليه الدراسة فى هذا البحث

الدكتور

رمضان عاشور أبو زيد محمد

Abstract

The Phenomenon of Stylistic Transformation of the Opposite and Similar in the Qur'anic Context (A Textual Study)

In the view of the Quranic method - especially in talking about the opposite images - draw the view of the departure of the style of what the interview requires, and what awaits the listener or reader, and what is called by the apparent systems come on the image achieved by the convergence, the systems turn from this method is expected, Another unexpected outcome, as well as when it is expected, anticipated and expected in the context, is that the method comes in a form similar to that of the systems in the first picture of a combination of the two images.

If we agree that the systematic transformation of the opposite of the opposite or similar is a stylistic phenomenon, the phenomenon requires in the method of study the analytical descriptive method, which stands on the phenomenon and describes and analyzes it by standing on the method to which it has been modified, and the secret of altruism and choice of alternative methods, Al-Mukhtar, who came in contrast to the expected and expected of the meanings and purposes can not be performed by the first method, and this is the approach used by the ancients in their study of the methods chosen from the alternatives available and proposed, and moving from one method to another, Z would go to study in this research

Dr.

Ramadan Ashour Abu Zeid Mohammed

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، وشرف العربية بأن جعلها لغة لهذا الكتاب ، واختص نبيه- صلى الله عليه وسلم - ليكون هو النبى العربى ، المبلغ ما فيه بأفصح لسان ، وأبلغ بيان ، صلوات ربى وتسليماته عليه ، وعلى آله وأصحابه والسائرين على خطاه إلى يوم الدين.

وبعد

فإن القرآن الكريم هو الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه ، ولا تنتهي أسراره وفوائده ، فقد وقفت الألسنة عاجزة أمام سلطانه ، والأفهام حائرة فى نظامه وبيانه ، ولم يملك المعاند أن ينكر سطوة هذا البيان، أو يدفع عن نفسه صفة العجز عن الإتيان ولو بآية من مثله، فاعترف بأنه ليس من كلام البشر ، وأثنى على بلاغته وحلاوته وطلاوته ، ووصفه بأنه الكلام الذى يعلو ولا يعلى عليه.

وأمام هذه البلاغة العالية التى لا تنكر ، الساطعة سطوع الشمس فى وضح النهار، والمضيئة إضاءة القمر فى ليلة البدر، وجدت الأقلام نفسها تتبارى فى الكشف عن أسراره، وتسابقت الأفهام فى الوصول لمكنونات أقواله ، وظلت مع ذلك معترفة بأن العجائب ليس لها نهاية ، وأن ما كشف من الأسرار هو قليل من كثير، وأن هذا الكتاب الخالد كلما زدته تأملا كلما زادك من أسراره ، وكشف لك عن بعض دقائقه وأحواله ، وتبقى الإحاطة بكل لطائفه رهينة من أنزله ، فهو منزل من عزيز عليم .

ولمكانة هذا الكتاب العظيم أصبح مقياس العلوم فى أهميتها وأولوية ترتيبها، وأحقيتها بالدراسة هو الصلة بهذا الكتاب ، وكانت البلاغة العربية فى مقدمة هذه العلوم بسبب قوة هذا الاتصال،لأن الهدف الأول من كل دراسة متصلة

بهذا العلم هو الكشف عن إعجاز هذا الكتاب ، ومن هنا تظل الدراسات القرآنية من الناحية البلاغية فى مقدمة الدراسات وأولاها بالعناية والاهتمام ؛لاتصالها اتصالا مباشرا بقضية الإعجاز فى القرآن الكريم .

وبالنظر والتأمل فى الأسلوب القرآنى- خاصة فى الحديث عن الصور المتقابلة- لفت نظرى خروج الأسلوب عما تقتضيه المقابلة ،وما يترقبه السامع أو القارئ ، وما يستدعيه ظاهر النظم من المجئ على صورة يتحقق بها التقابل ، فإن النظم يتحول من هذا الأسلوب المرتقب ،ويعدل إلى أسلوب آخر غير متوقع ، وكذلك عندما يكون المتوقع والمترقب والمنتظر فى السياق أن يأتى الأسلوب فى صورة مماثلة لما جاء عليه النظم فى الصورة الأولى لاشتراك بين الصورتين ، تجد التحول فى الأسلوب والعدول عن المماثلة فى النظم ، والخروج عما يقتضيه الظاهر، وتستوجبه المماثلة .

ولقد جمعت شواهد هذا البحث منذ فترة زمنية ، ثم انصرفت عنه ؛ لأننى لم أصل بعد إلى المصطلح البلاغى الذى يمكن أن تندرج تحته مثل هذه الدراسة ، ولم تكن – فيما أعلم – هناك دراسة مستقلة فى التراث البلاغي تشير إلى هذا النوع من الأساليب حتى فيما يتعلق بأساليب خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وظللت فترة من الزمن تاركا هذا البحث إلى أن حان الوقت للنظر فيه ، والرجوع إليه مرة أخرى ، وذلك أثناء قراءتى فى كتب الأسلوبية ، فقد وجدت أنهم يطلقون مصطلحات كثيرة معظمها يصلح أن يكون عنوانا لهذه الظاهرة الأسلوبية التى جمعت شواهدها فى القرآن الكريم ،لأن كل هذه المصطلحات- رغم كثرتها -كانت تدور حول مفهوم واحد ،وهو الانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر لأداء دلالة لا يؤديها الأسلوب الأول ، وقد أطلقوا على هذا المفهوم مصطلحا عاما ، هو التحول الأسلوبى ، تندرج تحته مصطلحات كثيرة كلها تدور حول المفهوم ذاته ، مثل الانزياح، والانحراف، والانتهاك ،والانكسار، والخروج عن

السنن ، والتمرد، إلى غير ذلك من المصطلحات الكثيرة جدا التى تدور حول هذا المفهوم الواحد(١).

ولأننى أدرك جيدا أن معظم مصطلحات المدارس النقدية الحديثة عبارة عن مفاهيم موجودة فى تراثنا العربى وما يفعلونه هو تحوير المفاهيم وصبغها بصبغة جديدة ،عن طريق تغيير مصطلحاتها، وهى مصطلحات معظمها مترجم عن الثقافات الغربية، وهم يحاولون بذلك تضليل العقول، وقطع الصلة بينها وبين تراثها ، مع إغرائها بدعوى التطور والتجديد، والتخلص من الجمود، ولأننى أدرك هذا الأمر جيدا، فإنى رجعت إلى تراثنا البلاغى للبحث عن هذا المفهوم الذى أثقلوه بكثرة المصطلحات ، فوجدته موجودا فى تراثنا دون اختلاف يذكر، ووجدتهم يطلقون على الانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر مصطلح العدول ، مع أن هذا المصطلح ربما يظن بعض الدارسين أنه من المصطلحات الحديثة ، فسيتضح من خلال هذه الدراسة أنه من المصطلحات الضاربة بجذورها فى تراثنا .

ولما كان التحول الأسلوبى بطريق العدول فى التراث البلاغى تندرج تحته صور كثيرة لا تقتصر على علم من علوم البلاغة الثلاثة (البيا ن، أو المعانى، أو البديع) بل هى موزعة عليها ، كان لا بد للبحث أن يحدد وجهته، فكان العدول عن المقابل والمماثل هى الوجهة التى ستتجه إليها الدراسة ، و كان عنوان هذا البحث: ظاهرة التحول الأسلوبى بالعدول عن المقابل والمماثل فى السياق القرآنى، دراسة بلاغية، وهذا النوع من التحول الأسلوبى والعدول نوع بكر من الدراسات القرآنية على وجه الخصوص ، والدراسة البلاغية على وجه العموم،

(١) ينظر الأسلوب والأسلوبية د/عبد السلام المسدى ٩٩- ١٠١، طبعة الدار العربية للكتاب، الطبعة الثالثة.

فعلى الرغم من أن هناك دراسات أسلوبية حديثة دارت حول بعض أساليب العدول فى القرآن[١] إلا أنها لم تتطرق من بعيد أو قريب إلى هذا النوع من العدول .

كذلك لم أجد فى تراثنا البلاغى إلا المفهوم العام الذى يندرج تحته هذا النوع من العدول ، لكنى لم أجد – رغم ذكرهم لكثير من صور العدول والانتقال من أسلوب إلى آخر – دراسة تفرد له عنوانا ،أو تشير إليه بدراسة مستقلة ترصد بعض شواهده كما صنع مع غيره من أساليب العدول التى ستبينها الدراسة فيما بعد ، هذا باستثناء ابن الأثير الذى ذكر بعض الشواهد التى تندرج تحت أسلوب العدول عن المقابل ، ودرسها تحت ما سمى عنده بالتقابل المعنوى[٢] .

وعدم وجود دراسة مستقلة تكشف عن هذا النوع من التحول الأسلوبى ، سواء فى الدراسات القرآنية ،أو الدراسات البلاغية من الأسباب التى تغرى

---

(١) من هذه الدراسات :العدول فى السياق القرآنى د/حمدى فياض ، جامعة الكوفة –كلية التربية للبنات – قسم اللغة العربية ،وهذا البحث يدور حول أربع آيا ت فى القرآن الكريم أقحمت فى سياقها ،وخرجت عما قبلها وما بعدها ،والدراسة تقوم على إثبات أن هذه الآيات جاءت فى مكانها الثابت المناسب ،وهى مستقرة فى سياقها، والآيات هى قوله تعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ.. إلخ الآية ١٨٦ البقرة) وقوله تعالى :(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاة الْوُسْطَى ..إلخ الآية ٢٣٨ البقرة) وقوله :(يأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِ لَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ .. إلخ الآية ٦٧ المائدة)، وقوله:(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ إلخ الآية ٣٣الأحزاب)

ــ ومن هذه الدراسات – أيضا– العدول الصرفى فى القرآن الكريم (دراسة دلالية) وواضح عنوان هذه الدراسة أنها لم تتناول العدول التركيبى بصورته فى بحثنا هذا.

(٢) ينظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر المؤلف: ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة ١٦٣/٣الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ــ القاهر

بدراسة هذا الموضوع ، خاصة لما تتسم به هذه الموضوعات التى لم تمسها أقلام الباحثين، بالجدة والطرافة والفكر الجديد الذى يضاف لمكتبة البلاغة القرآنية.

وإحقاقا للحق فإن للمفسرين جهودا عظيمة ، ولفتات دالة على عمق الفكر فى توجيه هذا النوع من التحول الأسلوبى فى كتاب الله عز وجل ، وقد اعتمد عليها البحث اعتمادا كبيرا وعلى أسسها قامت أعمدته .

ولما كانت الظاهرة الأسلوبية تعنى الاختيار من بين البدائل الأسلوبية المتاحة لا كثرة ورود الأسلوب كما يعتقد البعض ،وكان التحول الأسلوبى بالعدول عن المقابل والمماثل هو عبارة عن استبدال أسلوب بأسلوب آخر لأداء دلالة لا يؤديها الأسلوب الأول؛ عد هذا الأسلوب ظاهرة من الظواهر الأسلوبية فى القرآن الكريم ؛ لما فيه من التخير، وهذا التخير هو الذى تظهر فيه الصنعة والقدرة على الابداع.

وإذا اتفقنا أن التحول الأسلوبى بالعدول عن المقابل أو المماثل ظاهرة أسلوبية ، فإن الظاهرة تتطلب فى منهج دراستها المنهج الوصفى التحليلى ، الذى يقف على الظاهرة ويصفها ويحللها بالوقوف على الأسلوب الذى عدل إليه ، وسر إيثاره واختياره عن الأساليب البديلة المعدول عنها ، وبيان ما يحمله هذا الأسلوب المختار الذى جاء على خلاف المترقب والمتوقع من دلالات ومقاصد لا يمكن أن يؤديها الأسلوب الأول المعدول عنه ، وهذا هو المنهج الذى سار عليه القدماء فى دراستهم للأساليب المختارة من بين البدائل المتاحة والمطروحة ، والمنتقل فيها من أسلوب إلى آخر، وهو المنهج ذاته الذى ستسير عليه الدراسة فى هذا البحث، وهذا المنهج يقتضى أن تدرس الشواهد تحت سياقها الواردة فيه ، مع الربط بين الشاهد وسياقه ، ولذا فقد جاءت الدراسة فى مبحثين، تندرج تحت كل مبحث سياقاته الخاصة بشواهده ، مع سبق المبحثين بمقدمة، وتمهيد ، وتذييلهما بخاتمة وفهرس لمصادر البحث ومراجعه.

المقدمة: وفيها طرح لموضوع الدراسة، ودوافعه ،وأهميته فى الدراسات البلاغية والقرآنية ، ومنهج البحث ،وطريقة السير فيه ، وخطته.

التمهيد : وفيه عرض لمفاهيم عنوان البحث، وهى على ترتيبها كالتالى:

أولا : مفهوم الظاهرة.

ثانيا : مفهوم التحول الأسلوبى .

ثالثا: مفهوم العدول وجذوره فى التراث البلاغى.

المبحث الأول : التحول الأسلوبى بالعدول عن المقابل وسياقاته:

أولا: فى تهديد اليهود وتذكيرهم بيوم بدر.

ثانيا: : فى الحديث عن دلائل قدرته ووجوده ووحدانيته

ثالثا: فى بيان أحوال الناس فى الآخرة.

رابعا: فى الحديث عن أصناف الناس فى العبادة

خامسا: فى توجيه النبى فى مجادلته ومخاطبته للكفار

سادسا: فى بيات أحوال الكفار وصفاتهم

سابعا: فى الحديث عن طبائع النفس البشرية

المبحث الثانى: التحول الأسلوبى بالعدول عن المماثل وسياقاته

أولا: فى التحذير من اتخاذ اليهود والمنافقين بطانة.

ثانيا: فى التحذير من التفرق والاختلاف

ثالثا: فى الحديث عن الأمم السالفة

رابعا: فى الحث على اللين والتلطف فى الدعوة.

خامسا: فى الحث على تبليغ الدعوة

سادسا: فى سوق الأدلة على قدرة الله ووحدانيته

سابعا: فى الدعوة والترغيب فى الأعمال الصالحة

ثامنا: فى تسلية النبى عن إعراض قومه عن الدعوة

تاسعا: فى الحديث عن اليوم الآخر وجزائه

الخاتمة: وفيها إجمال لبعض ثمار البحث ، وأهم نتائجه التى توصل إليها، يليها فهرس لمصادر البحث ومراجعه.

وبعد ،، فهذا عملى المتواضع اجتهدت فيه قدر استطاعتى ، راجيا من الله – عز وجل – أن يجعله خالصا لوجهه، وأن يغفر لى الذلل والتقصير ، وعذرى فيه أنى أتعامل مع أعظم الكتب على الإطلاق ، وهو كتاب الله عز وجل ، والدراسة فيه تحتاج إلى الحذر واليقظة، وقوة التحكم فى العقل والقلم ، حتى لا يقع الباحث فى ذلة أو سقطة تجعله يقول فى كتاب الله ماليس فيه ، ندعو الله أن يحفظ قلمنا ولساننا من ذلك. والله الموفق.

التمهيد:

أولا : مفهوم الظاهرة:

إن مفهوم الظاهرة لا يعنى – كما يعتقد كثير من الباحثين– ورود أسلوب من الأساليب بكثرة عند الشاعر أو الناثر ، فالكثرة لا تمثل ظاهرة ،بدليل أنه لو جاز لنا الخروج للبحث عن مفهوم المصطلح عند غير البلاغيين لوجدنا على سبيل المثال علماء الفلك يطلقون الظاهرة على الشئ النادر، القليل الوقوع ،المتميز فى شكله الخارج عن المألوف، فهم يطلقون على كسوف الشمس ظاهرة ،ويطلقون على خسوف القمر ظاهرة ،فالعبرة هنا ليست بالكثرة ، وإنما العبرة بالتميز والتفرد، وتجد الناس فى مصطلحاتهم الاجتماعية يطلقون على الرجل المتفرد المتميز وسط جماعة من الناس بأنه ظاهرة، وهذا أيضا ليس للكثرة فيه وجود ، بل هو نتيجة وجود أوصاف جعلتهم يرونه بها ظاهرا ومتفردا عن غيره.

أما إذا أردنا أن نفتش عن معنى الظاهرة فى الاستعمال اللغوى فنجد أنها قد استعملت فى القرآن الكريم بمعنى التميز والوضوح ،قال تعالى: " وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً "[١] فقد قيل إن هذه القرى بين المدينة والشام ، وقد وصفت بالظاهرة لتميزها بارتفاعها، أو باتصالها ببعضها"[٢]، وقال تعالى– أيضا– (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)[٣] فالظاهرة هى الواضحة كالصحة وحسن الخلقة والمال.

---

(١) سورة سبأ من الآية ١٨

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ٢٨٩/١٤الناشر : دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة : الثانية ، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

(٣) سورة لقمان من الآية ٢٠

وفى الشعر تجد الطرماح يقول وهو يصف الثور :

يبين ويستعلى ظواهر خلفة ∴ له من سنا ينعق بعد بطائن

يقول ابن قتيبة : " يبين يستبين يعني الثور، ويستعلي يعلو، والظواهر جمع ظاهرة وهي الأرض الصلبة فيها ارتفاع، له للثور، من سنا أي من سنا ضوء برق، ينعق ينشق، بعد بطائن، ما بطن من السحاب ثم انشق عنه فأبداه"(١).

فواضح من تفسير ابن قتيبة لمعنى الظاهرة هنا أن اللفظ يطلق على ما فيه وضوح وتميز ،لأن اللفظ أطلق على الأرض المتميزة بصلابتها ، الواضحة بارتفاعها وعلوها. إذا فلفظ الظاهرة لم يستخدم فى الاستعمال اللغوى بمعنى الكثرة ،وكذا فإن الظاهرة الأسلوبية لا تعنى كثرة الورود ،وإنما تعنى تميز أسلوب ، واختياره من بين البدائل الأخرى التى يمكن أن تشترك معه فى أداء أصل المعنى،وبهذا الاختيار يسمى هذا الأسلوب ظاهرة، لتميزه، وظهوره، ووضوحه من بين البدائل والأساليب المتاحة التى تشترك معه فى أداء المعنى المقصود.

ولذا يصف أحد الباحثين الظاهرة الأسلوبية بأنها "تلك التى يكون لها فى نظام اللغة بديل أو أكثر يؤدى معناها أو- بتعبير أدق – البنية الأساسية لهذا المعنى، ومغزى ذلك أن وحدة المعنى بين الظاهرة اللغوية وبديلها المفترض هى أساس كونها ظاهرة أسلوبية"(٢). إذا فالظاهرة الأسلوبية لا تتحقق إلا إذا كانت

---

(١) المعاني الكبير في أبيات المعاني المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المحقق: المستشرق د سالم الكرنكوي عبد الرحمن بن يحيى بن علي اليماني ٧٤٧/٢الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد الدكن بالهند الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ، ١٩٤٩مثم صورتها: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٤ م]

(٢) أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية د/حسن طبل ٣٦ ، طبعة دار الفكر العربى ١٤١٨-١٩٩٨م.

هناك بدائل أسلوبية متاحة لأداء المعنى المقصود ، ولكن يتم إيثار واختيار أسلوب من بين هذه البدائل وتفضيله على غيره، وهنا يطلق على هذا الأسلوب المختار ظاهرة.

والسر فى كونه ظاهرة ، هو أن الاختيار من بين البدائل المتعددة هو الذى تظهر فيه المقدرة البلاغية ، ويتحقق فيه الإبداع والتميز ، وتبرز فيه مهارة المبدع وقدرته على حسن الاختيار من بين البدائل.

والظاهرة بهذا المفهوم ليس شيئا جديدا ارتبط بنشأة المدارس الحديثة كما يعتقد كثير من الباحثين ،بل سبق إليه علماؤنا القدامى ،فقد أدرك الإمام عبد القاهر مبكرا هذا المفهوم وأشار إليه تحت ما يسمى بالتخير، يقول الإمام : " لأنه لا فضيلةَ حتى تَرى في الأمرِ مَصْنَعاً، وحتى تَجدَ إِلى التخيُّر سبيلاً""[١].

وفى موضع آخر يقول الإمام" فليس الفضْلُ للعلم بأنَّ "الواو" للجمع، و"الفاء" للتعقيب بغير تَراخٍ، و"ثم" له بشرطِ التَراخي، و"إنْ" لكذا و"إذا" لكذا، ولكنْ لأَنْ يتأَتَّى لكَ إِذا نظَمْتَ شعراً وأَلَّفْتَ رسالةً أنْ تُحْسِنَ التخيُّرَ، وأن تَعْرِفَ لكلٍّ مِنْ ذلك مَوضِعَه"[٢].

ففكر الإمام عبد القاهر فى التخير من بين الأساليب المتاحة ،وبيان أن الصنعة تظهر فى هذا التخير يتلاقى مع فكر المدارس الأسلوبية الحديثة فى بيان معنى الظاهرة الأسلوبية ،مما يدلك على أن هذه المدارس قد استقت أفكارها ومفاهيمها من تراثنا العربى، إلا أنها حاولت أن تضلنا وتضللنا بدعوى الحداثة والتطور، ثم بتزييف الحقائق عن طريق تغيير المصطلحات وتحويرها.

---

(١) دلائل الإعجاز المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر ٩٨/١ الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م

(٢) المصدر نفسه٢٥٠/١

وتجد الدكتور شفيع السيد يؤكد ما نقول من تلاقى مفهوم مصطلح التخير مع مفهوم الظاهرة الأسلوبية فيقول : "وأما مجال التخير الذى يتميز به الأسلوب كذلك عند عبد القاهر الذى قلنا من قبل :إنه يعنى العدول عن معنى من معانى النحو إلى معنى آخر لأداء دلالة لا يعطيها المعنى الأول " [١] فأين الفرق بين هذا المعنى للتخير عند الإمام وبين مفهوم الظاهرة الأسلوبية؟ فكلاهما اختيار من بين البدائل الأسلوبية ، وتفضيل أسلوب من بين الأساليب والبدائل، لكون هذا الأسلوب أقوى فى الدلالة على المعنى المراد تأديته من البدائل الأخرى التى تشترك معه فى أداء أصل المعنى.

ثانياً : مفهوم التحول الأسلوبى :

التحول الأسلوبى هوانتقال وخروج غير متوقع عن المساق يفاجئ به المبدع المتلقى داخل السياق ، وذلك للمجئ على خلاف ما يترقبه القارئ أو السامع وما يقتضيه الظاهر، ولذا تجد أحد الباحثين يعرف التحول الأسلوبى بأنه "انزياح تركيبى يعنى الانتقال من بين أساليب الكلام انتقالا مفاجئا يستهدف إحداث تأثير فنى، كالتحول من الإنشاء إلى الخبر ، ومن الخبر إلى الإنشاء، إذ تساهم تلك الأساليب فى بناء النصوص وزيادة جماليتها "[٢]

ومن يطالع التراث العربى ، ويتعامل معه بوعى وفهم يجد أن مفهوم التحول الأسلوبى ، أو الانزياح ، أو غير ذلك من المصطلحات التى تناوبت على هذا المفهوم فى العصر الحديث ، والتى تدعى المدارس الحديثة نسبتها إليها موجود فى التراث العربى دون اختلاف إلا فى المصطلح ، وهذا هو حال معظم

---

(١) الاتجاه الأسلوبى فى النقد العربى د/شفيع السيد ص٣٥ طبعة دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٨٦م.

(٢) جماليات النص القرآنى (دراسة أسلوبية فى المستوى التركيبى) د/ عبد الله خضر حمد ص١٥ ، طبعة دار القلم –بيروت –لبنان

المصطلحات التى تدعى البنيوية والأسلوبية وغيرها من المدارس أنها هى المؤسسة لها، فهم يلبسون المفاهيم القديمة أثوابا جديدة عن طريق إطلاق المصطلحات التى معظمها مترجم من الثقافة الغربية، محاولين بذلك تضليل العقول بدعوى التطور والانفتاح والتخلص من الجمود الذى هو دائما الوصف السائد عندهم للتراث العربى على مختلف علومه وفنونه.

فإذا تركنا الحديث عنهم وذهبنا للنظر فى تراثنا العربى ، والتقينا بالعالم الجليل جارالله الزمخشرى ،وهو يتحدث عن فائدة الانتقال والتحول الأسلوبى للالتفات نجده يبين هذه الفائدة بقوله : "لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد"(١).

فعبارة الزمخشرى (وقد تختص مواقعه بفوائد) تدخل تحتها كل الأسرار والدقائق واللطائف البلاغية التى يمكن أن يحملها كل تحول فى الأسلوب داخل سياقه وموقفه .

ولولا أن المقام هنا ليس مقام تحرير المصطلحات لذكرت الكثير من النصوص التى تثبت صحة ما أقول من السطو على المفاهيم العربية القديمة ، وتحويرها وإلباسها أثواب الحداثة عن طريق وضع المصطلحات المترجمة ، ولكن عذرى فى ذلك أن هذه ليست مهمة البحث هنا ،وإنما الهدف هنا هو بيان مفهوم المصطلح.

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله ١٤/١ الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧هـ

ثالثا : مفهوم العدول :

العدول هو أسلوب من أساليب التحول الأسلوبى ، وهو يعنى الانتقال من أسلوب إلى آخر، ويخطئ من يظن أن هذا المصطلح وليد العصر الحديث ، بل هو موجود بمفهومه الحديث فى تراثنا القديم، فإذا كان العدول عند رواد الأسلوبية يعنى" انحراف الكلام عن نسقه المثالى المعروف"(١)وذلك لخروجه عن الأصل ، ومخالفته لمقتضى الظاهر، فإن علماءنا قد سبقوا إلى هذا المفهوم ، فالعدول فى التراث العربى ، يعنى الانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر لأداء دلالة لا يؤديها الأسلوب الأول، وبهذا المفهوم أطلق علماؤنا القدامى مصطلح العدول على صور كثيرة كلها تحمل مفهوم الانتقال ، والخروج عن الأصل ، ومخالفة مقتضى الظاهر.

وهذا المفهوم للعدول يقابل مفاهيم مصطلحات كثيرة اتخذت بديلا لمفهوم العدول فى المدرسة الأسلوبية فى العصر الحديث ، مثل الانحراف والانتهاك والانزياح إلى غير ذلك من المصطلحات المتزاحمة التى أرهقت المفهوم الواحد، فكلها تدور حول مفهوم العدول الذى لم يكن غائبا عن أذهان علمائنا القدامى.

ولما كان الهدف هنا هو بيان مفهوم العدول فى التراث البلاغى، وليس تتبع تطوره التاريخى كان كافيا فى بيان مفهومه، والتدليل على أنه مصطلح ضارب بجذوره فى تراثنا ذكر بعض النصوص التى تفى بهذا الغرض عند أبرز علماء البلاغة .

فابن جنى يرى أن المجاز نوع من أنواع العدول عن الحقيقة وذلك فى قوله : "إنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهى الاتساع

---

(١) البلاغة والأسلوبية د/محمد عبد المطلب٢٧٦ مكتبة لبنان ناشرون ، الشركة المصرية للنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

والتوكيد والتشبيه ، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة"[١] فالمجاز عند ابن جنى هو عدول عن الحقيقة لمعان تقصد من هذا العدول لايمكن تأديتها بالأسلوب الأول المعدول عنه ، هذه المعانى هى الاتساع والتوكيد والتشبيه ، أما إذا لم يؤد العدول عن الأسلوب الأول دلالة زائدة فإن العدول فى هذه الحالة محكوم عليه بالتكلف والخروج عن دائرة الأساليب البليغة.

ويتحدث الباقلانى عن المبالغة ويعدها نوعا من أنواع العدول ، لما فيها من الانتقال من صيغة إلى أخرى يقول :"أما المبالغة فهى الدلالة على كثرة المعنى، وذلك على وجوه، منها مبالغة فى الصفة المبينة لذلك كقولك: رحمان عدل راحم للمبالغة "[٢]

فالرحمن صيغة مبالغة من اسم الفاعل راحم ، فهو عدول من صيغة اسم الفاعل، وهذا العدول جاء لنكتة ولطيفة بلاغية هى الدلالة على كثرة الرحمة.

ولاستواء مفهوم العدول ونضوجه عند علمائنا القدامى تجد ابن الأثير يتحدث عن بلاغة هذا الأسلوب وقيمته الفنية ومكانته بين أساليب البيان فيقول : " اعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك ، وهو لا يتوخاه فى كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذى اطلع على أسرارها، وفتش عن دفائنها ، ولا تجد ذلك فى كل كلام فإنه من أشكل ضروب علم البيان ،وأدقها فهما، وأغمضها طريقا"[٣]

---

(١) الخصائص لأبى الفتح عثمان بن جنى ٤٤٤/٢ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب –الطبعة الرابعة

(٢) إعجاز القرآن لأبى بكر الباقلانى محمد بن الطيب تحقيق السيد أحمد صقر ٢٧٣/١ ، دار المعارف – مصر– الطبعة الخامسة ١٩٩٧م

(٣) المثل السائر ١٤٥/٢

فواضح أن ابن الأثير يتحدث عن نوع من أنواع العدول ،وهو العدول من صيغة إلى صيغة أخرى ،وواضح – أيضا- أن العدول عنده يعنى الانتقال والتحول من أسلوب إلى آخر، فهو يدرك جيدا مفهوم المصطلح ، ويدرك قيمته البلاغية ، ومكانته بين الأساليب الأخرى ، فهو يراه من أشكل ضروب البيان ، الذى لا يقدر على استعمالها الاستعمال المتصف بالبلاغة إلا الضليع فى هذا الفن، المطلع على أساليب العربية وأسرارها ودقائقها ،الخبير بدروبها ومسالكها، وذلك لما فى هذا الأسلوب من العمق، ولما يحتاجه من الدقة فى الفهم .

ويتحدث إمام البلاغة ومؤسسها الإمام عبد القاهر عن المجاز، ويرى أنه نوع من أنواع العدول ،ويفهم من حديثه أن العدول عنده، يعنى الخروج عن الأصل ، والانتقال من أسلوب إلى آخر،يقول الإمام: "وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز، على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلى"(١)

ويقسم الإمام الكلام الفصيح قسمين ،ويجعل الكلام الذى يراد فيه باللفظ أصل معناه من أنواع العدول ، يقول فى ذلك : "اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين ، قسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ ، وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم ، فالقسم الأول الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة ، وكل ما كان فيه- على الجملة – مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر"(٢) .

ويظهر جليا مفهوم العدول عند الإمام – والذى يعنى الخروج عن الأصل والانتقال من أسلوب إلى غيره – فى قوله :"عليك أن توفق بين معانى تلك الألفاظ

---

(١) أسرار البلاغة لأبى بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى ، تحقيق محمود محمد شاكر٣٩٥ ، مطبعة المدنى بالقاهرة- دار المدنى بجدة

(٢) دلائل الإعجاز ٤٢٩ ،٤٣٠

المسجعة ، وبين معانى الفصول التى جعلت أردافا لها، فلم تستطع ذلك إلا بعد أن عدلت عن أسلوب إلى أسلوب ، أودخلت فى ضرب من المجاز، أو أخذت فى نوع من الاتساع، وبعد أن تلطفت على الجملة ضربا من التلطف"(١).

ولا أدل على إلمام الإمام بمفهوم العدول بما يتلاقى مع مفهومه فى الدراسات الأسلوبية الحديثة من هذا التطبيق العملى ، الذى يكشف فيه عن أسرار هذا الأسلوب ودقائقه، ويرد ردا قاطعا على من يدعى أن الانزياح أو الانحراف أو غيرهما من المصطلحات التى جاءت مرادفة لمصطلح العدول وليدة المدرسة الأسلوبية الحديثة ومن ابتكارها، تجد هذا الرد القاطع عند الإمام فى تحليله لأسلوب العدول فى قول الشاعر:

ولو شئت أن أبكى دما لبكيته ∴ عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

يقول الإمام عبد القاهر معلقا على أسلوب العدول فى البيت "فقياس هذا لو كان على حد (ولوشاء الله لجمعهم على الهدى) أن يقول : لو شئت بكيت دما ، ولكنه كأنه ترك تلك الطريقة وعدل إلى هذه ،لأنها أحسن من هذا الكلام خصوصا، وسبب حسنه أنه كأنه بدع عجيب أن يشاء الإنسان أن يبكى دما، فلما كان كذلك كان الأولى أن يصرح بذكره ، ليقرره فى نفس السامع ويؤنسه به"(٢)

إن هذا التحليل الرائع ، والتوجيه البديع لأسلوب العدول فى البيت يدل على استقرار مفهوم هذا المصطلح عند الإمام، ومعرفته بدقائقه ووصوله إلى

(١) المصدر نفسه٦٢
(٢) المصدر نفسه ١٦٤

أعماقه ، ويدل – أيضا – على تمرسه بالأساليب ، ومعرفته بخفاياها،فالكشف عن أعماق هذا الأسلوب لا يقدر عليه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة ، الذى اطلع على أسرارها ، وفتش فى دقائقها ، وذلك على حد تعبير بن الأثير.

ولما كان الالتفات نوعا من أنواع العدول أدرك علماؤنا مبكرا هذا الأمر، وعرفوا الالتفات بأنه انتقال من أسلوب إلى أسلوب ، ولذلك تجد الزمخشرى يتحدث عن سر بلاغة الالتفات فى أبيات امرئ القيس التى يقول فيها:

تطاول ليلك بالإثمد ∴ وبات الخلى ولم ترقد

وبات وباتت له ليلة ∴ كليلة ذى العائر الأرمد

وذلك من نبأ جاءنى ∴ وخبرته عن أبى الأسود

يقول الزمخشرى معلقا على أسلوب الالتفات فى الأبيات : " وذلك على عادة افتنانهم فى الكلام وتصرفهم فيه ، لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد"(١) وتجد العلوى ينص نصا صريحا على أن الالتفات " هو العدول من أسلوب إلى أسلوب آخر مخالف للأول"(٢) فلأن العلوى يدرك جيدا أن الالتفات صورة من صور العدول عرف الالتفات تعريفا لا يختلف عن تعريف الأسلوبية فى العصر الحديث لمصطلح العدول، الذى أطلقوا عليه مسميات كثيرة ، كالانزياح، والانحراف، والانكسار، والانتهاك وغيرها من المصطلحات الكثيرة الدالة على مفهوم واحد، والتى تعنى الانتقال من أسلوب إلى آخر.

---

(١) الكشاف ١٤/١

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ،المؤلف ، يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم الحسينى العلوى ٧١/٢ المكتبة العنصرية –بيروت –الطبعة الأولى ١٤٢٣ه.

هكذا يتفق علماؤنا على أن العدول ، هو الانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر لأداء دلالة لا يؤديها الأسلوب الأول ، وهذا هو المفهوم الذى تقوم عليه الدراسة فى هذا البحث ، والذى ستطبقه على هذا النوع من العدول فى القرآن الكريم، وهو العدول عن الأسلوب المقابل والمماثل ،هذا النوع من العدول الذى لم أجد دراسة تناولته فى القرآن أو الشعر أو النثر، مع العلم أن هناك دراسات تناولت صورا من صور العدول فى القر آن إلا أنها لم تتطرق إلى هذا النوع كما أشرت إلى ذلك فى مقدمة هذا البحث.

المبحث الأول:

التحول الأسلوبى بالعدول عن المقابل فى السياق القرآنى.

يأتى التحول الأسلوبى بالعدول عن المقابل فى السياقات القرآنية التى تتحدث عن الصور المتقابلة ، والتى معظمها يأتى فى الحديث عن تقابل أحوال النفس الإنسانية فى عقيدتها ، أو فى طبائعها ورغباتها ، أو فى تقابل أحوالها فى اليوم الآخر، والغالب فى الأسلوب القرآنى عند حديثه عن الأحوال والصفات المتقابلة أن يعتمد على أسلوب التقابل كما فى قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا من بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)[١] إلا أن السياق القرآنى قد يعدل عن أسلوب التقابل عند الحديث عن الصورتين المتقابلتين، لأداء دلالات ومقاصد داخل السيا ق لا يمكن أن يؤديها مجئ الكلام على أسلوب التقابل ، فمن أجل هذه المقاصد يعدل النظم عن التقابل، ويأتى بأسلوب آخر يؤدى المعانى التى كانت ستؤدى عن طريق أسلوب التقابل ، مع الزيادة الدلالية ، والمعانى الإضافية التى قصدت من هذا العدول.

وتصبح النكتة المشتركة فى كل السياقات القرآنية التى عدل فيها عن أسلوب التقابل إلى غيره هى الاهتمام بالمعنى الذى عدل من أجله ، وانتقل فيه من أسلوب إلى آخر، مع إثارة الذهن وتنشيطه للفت الانتباه إلى هذا المعنى ، وتبقى سمة الإيجاز هى السمة المشتركة التى يؤديها أسلوب العدول عن المقابل فى كل هذه السياقات ، وتظل – مع هذا المقصد العام المشترك بين السياقات – لكل أسلوب فى سياقه دلالاته الخاصة، ومقاصده المرجوة من وراء هذا العدول ،

---

(١) سورة الليل من الآية ٥-١٠

والتى تحددها مناطات السياق وملابساته ، وما ارتبط به من المعانى والمواقف والأحداث ، وما قصد من ورائه من أهداف .

أولا : فى تهديد اليهود وتذكيرهم بيوم بدر.

قال تعالى : (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يرونهم مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ)[١].

جاءت هذه الآية فى سياق تهديد اليهود وتحذيرهم من الاغترار بكثرة العدد، وذلك بتذكيرهم بما حدث فى غزوة بدر من انتصار المسلمين رغم قلة عددهم وكثرة عدد الكفار ، فقد سبقت هذه الآية بقوله :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ "[٢]ولا خلاف أن المراد بالفئتين هما المقتتلان فى يوم بدر،وإنما وقع الخلاف فى المخاطب بهذا الخطاب ، فقيل:المخاطب بها المؤمنون،وقيل: اليهود، وفائدة الخطاب للمؤمنين تثبيت نفوسهم وتشجيعها، وفائدته إذا كان مع اليهود عكس الفائدة المقصودة بخطاب المسلمين"[٣]

والراجح من خلال الرجوع إلى سبب نزول الآية أن الخطاب فيها لليهود على وجه الخصوص، فقد ورد فى سبب نزول هذه الآية أنه" لما أصاب الله –عز وجل– قريشا يوم بدر جمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يهود فى سوق بنى قينقاع حين قدم المدينة، فقال: يا معشر يهود: أسلموا قبل أن يصيبكم الله

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣

(٢) سورة آل عمران الآية ١٢

(٣) فتح القدير لمحمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكانى ٣٨٩/١ ، طبعة دار بن كثير ، ودار الكلم الطيب – دمشق –بيروت –الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

بمثل ما أصاب به قريشا، فقالوا له: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا ،فأنزل الله تعالى: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا إلخ الآية"(١)

وذكر الواحدى فى أسباب نزول قوله تعالى : (قل للذين كفروا ستغلبون .. إلخ):أن يهود المدينة "لما كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ ، وَنُكِبَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – شَكُّوا، ..وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاءُ فَلَمْ يُسْلِمُوا، وَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَهْدٌ إِلَى مُدَّةٍ، فَنَقَضُوا ذَلِكَ الْعَهْدَ، وَانْطَلَقَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ فِي سِتِّينَ رَاكِبًا إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ، فَوَافَقُوهُمْ وَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ، وَقَالُوا: لَتَكُونَنَّ كَلِمَتُنَا وَاحِدَةً، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ. "(٢).

ومتأمل هذا النظم الكريم يلفت نظره التحول الأسلوبى بالعدول عن المقابل ،وذلك فى قوله تعالى :(فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة) فظاهر النظم يقتضى أن يقال –تحقيقا للمقابلة– فئة تقاتل فى سبيل الله وفئة تقاتل فى سبيل الشيطان،إلا أن النظم فى الآية سلك طريقا مخالفا لما يقتضيه ظاهره ،وعدل عن المقابل إلى قوله :(وأخرى كافرة).

---

(١) السيرة النبوية المؤلف ،عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى أبو محمد جمال الدين تحقيق مصطفى السقا ،وإبراهيم الأبيارى ،وعبد الحفيظ الشلبى ٥٥٢/١ ، مطبعة مصطفى بابى الحلبى وأولاده مصر، الطبعة الثانية ١٣٧٥ ه– ١٩٥٥م..(بتصرف)

(٢) أسباب نزول القرآن المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان ٩٨/١ الناشر: دار الإصلاح – الدمام الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢.

وقد سلك النظم فى هذا التحول والعدول عن المقابل طريق الاحتباك ، لأن المعنى "فئة مؤمنة تقاتل فى سبيل الله،وفئة أخرى كافرة تقاتل فى سبيل الشيطان، فحذف من الأولى ما أثبت مقابله فى الثانية،ومن الثانية ماأثبت نظيره فى الأولى، فذكر فى الأولى لازم الإيمان، وهو القتال فى سبيل الله،وذكرفى الثانية ملزوم القتال فى سبيل الشيطان وهو الكفر"(١)

إذا فقد نتج عن العدول عن المقابل فى الآية أسلوب الاحتباك الذى يعتبر الإيجاز وتحاشى تكرار القول من أبرز سماته البلاغية، والذى يكشف لنا العلامة السيوطى عن بلاغته فيقول:"هو من ألطف الأنواع وأبدعها ، وقل من تنبه له أو نبه عليه من أهل فن البلاغة"(٢) ثم يقول نقلا عن الأندلسى فى شرح البديعية :" وهونوع عزيز، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى، ومن الثانى ما أثبت نظيره فى الأول"(٣)

ويكشف الكرمانى عن بلاغة أسلوب الاحتباك فى كتاب الله تعالى فيقول : "وله فى القرآ ن نظائر، وهو أبلغ ما يكون من الكلام"(٤).

إذا فقد عدل النظم فى الآية عن مقابلة وصف كل فريق بما وصف به الآخر ، فعرفت الفرقة الأولى بإيمانها من خلال وصف الفرقة الثانية بالكفر، فهذا

---

(١) البحر المحيط،لأبى حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الأندلسى تحقيق صدقى محمد جميل ٤٥/٣ ،دار الفكر –بيروت –١٤٢٠ه.

(٢) الإتقان في علوم القرآن المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٤٠٢/٣ الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

(٣) المصدر نفسه ٤٠٢/٣

(٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطى ٢٤٤/١ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

الإيمان هو الذى يدفعها إلى أن يكون قتالها لإعلاء كلمة الله ،وأن تكون رايتها مرفوعة لا فى شئ إلا فى سبيل الله والدفاع عن دينه.

أما الفئة المقابلة وهى الفئة الكافرة فعرفت بأنها تقاتل فى سبيل الشيطان، وذلك من خلال وصف الفئة الأولى بأنها تقاتل فى سبيل الله.

وفى بلاغة العدول عن المقابل فى الآية يقول الشيخ الشعراوى :"وحين ندقق النظر فى النص القرآنى نجد أن الحق لم يورد لنا وصف الفئة التى تقاتل فى سيل الله ،ولم يذكر أنها مؤمنة ،وأوضح أن الفئة الأخرى كافرة ،وهذا يعنى أن الفئة التى تقاتل فى سبيل الله لابد أن تكون فئة مؤمنة،ولم يورد الحق أن الفئة الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان؛ اكتفاء بأن كفرها لا بد أن يقودها إلى أن تقاتل فى سبيل الشيطان"(١)

هكذا فإن العدول عن المقابل فى الآية اتسم بالإيجاز البليغ ،والبعد عن تكرار القول ،والاكتفاء بالمقابل المذكور عن المقابل المعدول عنه،وبهذا الأسلوب الموجز استطاع النظم أن يكشف قوة العلاقة بين الإيمان والقتال فى سبيل الله ،وبين الكفر والقتال فى سبيل الشيطان.

هذا وقد وجه الألوسى العدول عن المقابل فى الآية توجيها آخر، حيث جعل السر فى العدول عن المقابل فى قوله (وأخرى كافرة) هو عدم ذكر القتال وإسناده إلى الكفار، وذلك لعدم الاعتداد بقتالهم، يقول الألوسى:"فئة تقاتل فى سبيل الله فهى فى أعلى درجات الإيمان، ولم يقل: مؤمنة مدحا لهم بما يليق بالمقام ورمزا إلى الاعتداد بقتالهم .. وأخرى كافرة بالله تعالى فهى أبعد من أن

(١) تفسير الشيخ الشعراوى المؤلف: محمد متولي الشعراوي ١٢٩٨/٢ الناشر: مطابع أخبار اليوم

تقاتل فى سبيله،وإنما لم توصف بما يقابل صفة الفئة الأولى؛ إسقاطا لقتالهم عن درجة الاعتبار، وإيذانا بأنه لم يتصدوا له؛ لما عراهم من الهيبة والوجل"[١]

ثانيا: فى الحديث عن دلائل قدرة اللّه ووجوده ووحدانيته

قال تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)[٢]

يربط الرازى بين هذه الآية وما قبلها فيقول :"اعلم أنه تعا لى لما ذكر قوله : (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا)[٣] احتج عليه بهذه الآية ، والمعنى أنه تعالى جعل الليل ليزول التعب والكلال بالسكون فيه، وجعل النهارمبصرا،أى مضيئا لتهتدوا به فى حوائجكم بالإبصار"[٤]

وقد جعل الطاهر بن عاشور الآية معتر ضة بين قوله :(إن يتبعون إلا الظن) وقوله: (قالوا اتخذ الله ولدا) وجئ بها للاستدلال على فساد ظنهم، وخرصهم بشواهد خلق الليل والنهار المشاهد فى كل يوم من العمر مرتين ،وهم فى غفلة عن دلالته ،وهو خلق نظام النهار والليل[٥] .

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسى المحقق: علي عبد الباري عطية ٩٢/٢ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ه.

(٢) سورة يونس من لآية ٦٧

(٣) سورة يونس من الآية٦٥

(٤) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي ١٧ /٢٨٠ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ ه

(٥) ينظر التحرير والتنوير، المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور١١ /٢٢٦ الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤م

وفى الآية دليل على عظم قدرته ووحدانيته –سبحانه – وتفرده بشئون الكون وبطلان ادعاء الشريك والولد ، وذلك من خلال ذكر نعمته" الشاملة لعباده التى يستحق بها أن يوحدوه بالعبادة ، بأنه جعل لهم الليل مظلما ،ليسكنوا فيه مما يقاسون فى نهارهم من تعب التردد فى المعاش ، والنهار مضيئا يبصرون فيه مطالب أرزاقهم ومكاسبهم"(١).

ولما كان السياق هنا فيه إثبات لدلائل قدرته ،وعظيم نعمه على عباده التى من أجلها استحق التفرد بالعبادة ناسب ذلك التحول الأسلوبى بالعدول عن ذكر المقابل للعلة فى خلق الليل ، وهو قوله (لتسكنوا فيه) فكان المتوقع فى النظم أن تأتى العلة المقابلة وهى علة خلق النهار :لتبصروا فيه ،وإنما عدل النظم القرآنى عن هذه العلة ،وبدلا من أن يسند الإبصار إلى ضمير الجماعة أسنده إلى النهار ، فجعل النهار هوالذى يبصر، وذلك على طريقة المجاز العقلى ؛ لأن الإبصار لا يقع من النهار وإنما يقع الإبصار فى النهار ،فالنهار زمن له وقد "قالوا في علاقة الزمان: نهاره صائم، وليله قائم، فقد أسندوا الصوم إلى النهار، أي ضميره، كما أسندوا القيام إلى الليل، والصائم هم الناس في النهار، وكذلك القائم هم الناس في الليل، ولكنهم أسندوا الحديث إلى الزمان من حيث وقوعه في هذا الزمان"(٢).

وقد أسند الإبصار إلى النهار هنا فى الآية مبالغة فى الإبصار فيه ،وسيرا على لغة العرب فى ذلك، فإنه لما كان مثل هذا الإسناد موجودا فى لغتهم ، ومفهوما عندهم جاء النظم على سننهم فى كلامهم من ذلك قول جرير:

---

(١) الكشاف ٣٥٨/٢

(٢) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني المؤلف: محمد محمد أبو موسى ١٠٨/١ الناشر: مكتبة وهبة الطبعة: السابعة

لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى ∴ ونمت وما ليل المطى بنائم[١]

فقد أسند جرير النوم إلى الليل، والليل لا ينام، وإنما هو زمن للنوم فيه.

وقد عدل النظم القرآنى فى مجئ علة النهار على ما جاء عليه النظم فى علة الليل ، فلم يقل : لتبصروا فيه كما قال: (لتسكنوا فيه) وإنما أوثر التعبير بالمجاز فى جانب علة الليل تناسبا مع سياق إظهار قدرة الله وفضله على عباده ، وذلك لما فى هذا العدول من إظهار قوة هذا الفضل ، فالإبصار ليس بإرادتهم ،ولا بقواهم البصرية ، وإنما هو نعمة من الله عز وجل ، فليس الهدف من السياق هو بيان إبصارهم فى النهار ، وإنما المقصود هو بيان نعمة النهار التى أنعم الله بها على عباده من أجل الإبصار ، ولذا جاء الإبصار مسندا إلى النهار؛ لأن هذه النعمة التى أنعم الله بها على عباده وهى نعمة السعى لطلب الرزق فى هذا الوقت، وقت النهار ، حيث جعل هذا الزمن كله صالحا لهذه النعمة.

وفى هذا التحول عن المقابل فى الآية يقول ابن الأثير:"فإنه لم يراع التقابل فى قوله : (لتسكنوا فيه) ،و(مبصرا) ؛لأن القياس يقتضى أن يكون والنهار ليبصروا فيه ، وإنما هو مراعى من جهة المعنى لا من جهة االلفظ "[٢]

فابن الأثير يرى أن هذه الآية وإن كان فيها عدول عن المقابل اللفظى ، ففى الجانب الآخر فيها تقابل معنوى ، وفى هذا النوع من التقابل يقول ابن الأثير "واعلم أن فى تقابل المعانى بابا عجيب الأمر يحتاج إلى فضل تأمل، وزيادة نظر، وهو يختص بالفواصل من الكلام المنثور،وبالأعجاز من الأبيات الشعرية"[٣]

---

(١)

(٢) المثل السائر ١٦٣/٣

(٣) المصدر نفسه١٦٣/٣

فتقابل المعانى مسلك دقيق من مسالك النظم فى الآية ،وفى بلاغة هذا العدول عن التقابل فى الآية يقول الزمخشرى :"وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف؛ لأن معنى مبصرا ؛ ليبصروا فيه طرق التقلب فى المكاسب "(١)

ومما جاء فى السياق السابق قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)(٢)

فقد جاءت هذه الآية فى سياق الحديث عن الدلائل والبراهين المثبتة لوجوده سبحانه ، الدالة على قدرته ووحدانيته وتفرده بالعبادة، هذه الدلائل التى تجعله جديرا بالتسبيح المأمور به فى السياق ذاته فى قوله :(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ) (٣) وبالحمد الذى سبق هذه الدلائل وذلك فى قوله:(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ)(٤) فبعد أن قصر سبحانه- بتقديم الجار والمجرور- الحمد على ذاته ساق من الأدلة ما يثبت أحقيته فى ذلك ، وبعد"أن ذكر –سبحانه –دلائل وجوده بما ذكره فى خلق الإنسان أعقبه بذكر الدلائل فى الأكوان المشاهدة ،والعوالم المختلفة ، وفى اختلاف ألوان البشر ولغاتهم التى لا حصر لها،مع كونهم من أب واحد وأصل واحد،وفيما يشاهد من سباتهم العميق ليلا ، وحركتهم السريعة نهارا فى السعى على الأرزاق والجد والكد فيها "(٥)

---

(١) الكشاف ٣٨٦/٣

(٢) سورة الروم الآية ٣٠

(٣) سورة الروم الآية ١٧

(٤) سورة الروم الآية ١٨

(٥) تفسير المراغي: المؤلف ، أحمد بن مصطفى المراغي ٣٨/٢١ الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م.

فالنوم آية عظيمة من آيات الله – عز وجل – فى كونه ،ولايدرك عظمتها كثير من الناس ، لفقدانهم نعمة التأمل والتدبر فى خلق الله، فالنوم من أكبر الأدلة على قدرة الله – عز وجل – على إحياء الموتى وبعثهم بعد مماتهم ،" فحالة النوم حالة عجيبة من أحوال الإنسان والحيوان، إذ جعل الله له فى نظام أعصاب دماغه قانونا يسترد به قوة مجموعه العصبى بعد أن يعتريه فشل الإعياء من إعمال عقله ، فيعتريه شبه موت يخدر إدراكه ولا يعطل حركات أعضائه الرئيسة، ولكنه يثبطها حتى يبلغ من الزمن مقدارا كافيا ،لاسترجاع قوته، فيفيق من نومته ، وتعود إليه حياته كاملة"(١)

وقد تحول السياق فى الآية وعدل عن مقابلة النوم بالاستيقاظ ، فالمقابلة كانت تستوجب أن يأتى الاستيقاظ مقابلا للنوم فى قوله: (منامكم بالليل) إلا أن السياق عدل عما تستوجبه المقابلة وآثر التعبير بابتغاء الفضل لأن" الابتغاء من فضل الله: طلب الرزق بالعمل ؛لأن فضل الله الرزق، وجعل هذا كناية عن الهبوب إلى العمل؛لأن الابتغاء يستلزم الهبوب من النوم، وذلك آية أخرى؛لأنه نشاط القوة بعد أن خارت وفشلت "(٢)

فالعدول عن لفظ الاستيقاظ أو الحركة إلى ابتغاء الرزق فيه إشارة إلى نعمتين من النعم التى أنعم الله بها على الإنسان فى ليله ونهاره، الأولى نعمة النوم التى فيها راحة البدن وتجديد النشاط ، و الثانية نعمة الرزق التى يستطيع الإنسان بها أن يلبى احتياجاته ومعيشته ، هذا بالإضافة إلى أن القرآن أراد أن ينبه الإنسان إلى أن الاستيقاظ والحركة لابد أن يكونا للسعى والرزق وتعمير الكون وإصلاحه لا للإفساد والتخريب فى الأرض، فالحركة نوعان ،حركة لمصلحة

(١) التحرير والتنوير ٢١/٧٦
(٢) المصدر نفسه٢١ /٦ ٧

،وحركة لمفسدة ، والقرآن يريد الحركة الأولى منهما،[١] وهذا هو سر العدول عن مقابلة النوم بالاستيقاظ فى الآية .

وقد جعل الزمخشرى الآية من قبيل اللف والنشر حيث قال : "هذا من باب اللف وترتيبه : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار؛إلا أنه فصل بين القرينين الأولين بالقرينين الآخرين؛ لأنهما زمانان،والزمان والواقع فيه كشئ واحد ، مع إعانة اللف على الاتحاد"[٢]

وقد اعترض الطاهر بن عاشورعلى الزمخشرى فى عده الآية من باب اللف والنشر حيث قال : "وقد تكلف صاحب الكشاف فجعل الكلام من قبيل اللف والنشر، على أن اللف وقع فيه تفريق"[٣].

وممن اعترض على الزمخشرى –أيضا– فى جعل الآية من قبيل اللف والنشر ابن هشام حيث قال :"قول الزمخشرى فى :(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِن فَضْلِهِ) إنه من قبيل اللف والنشر ،وإن المعنى :منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار، وهذا يقتضى أن يكون النهار معمولا للابتغاء، مع تقديمه عليه وعطفه على معمول منامكم وهو بالليل ،وهذا لا يجوز فى الشعر فكيف فى أفصح الكلام "[٤]

---

(١) ينظر بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المؤلف: عبد المتعال الصعيدي ٥٧٩/٤ الطبعة: السابعة عشرة: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

(٢) الكشاف ٤٧٣/٣

(٣) التحرير والتنوير ٧٦/٢١

(٤) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب المؤلف: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، بن هشام ، المحقق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله ٧٠٤/١الناشر: دار الفكر – دمشق الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م

وقد وافق الشيخ محيى الدين درويش ابن هشام فى اعتراضه على الزمخشرى وذلك فى قوله:" ما ذكره الزمخشرى مشكل من جهة الصناعة النحوية؛ لأنه إذا كان المعنى ما ذكره يكون النهار معمول(ابتغاؤكم) وقد تقدم عليه وهو مصدر وذلك لا يجوز، ثم يلزم العطف على معمول عاملين فالتركيب لا يسوغ"(١)

وأرى أنه لا مانع من حمل الآية على ترتيبها، فالنوم يمكن أن يحدث ليلا أو نهارا، والعمل يمكن أن يكون ليلا كأعمال الحراسة وغيرها، فأرى أن الأولى هو تفسير معنى الآية على ترتيبه ،على أن يكون المعنى –والله أعلم– النوم بالليل أو النهار من آيات الله،وكذا الاستيقاظ من هذا النوم للحركة وطلب الرزق .

ثالثا : فى بيان أحوال الناس فى الآخرة.

قال تعالى: (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَن أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا)(٢)

يربط العلامة ابن عاشور بين هذه الآية وما قبلها فيقول :"انتقال من غرض التهديد بعاجل العذاب فى الدنيا الذى فى قوله : (رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ

(١) إعراب القرآن وبيانه المؤلف : محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش ٤٩٣/٧الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) ، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت) الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ

(٢) سورة الإسراء الآية ٧١، ٧٢

الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ)[١]إلى قوله (ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا)[٢] إلى ذكر حال الناس فى الآخرة تبشيرا وإنذارا، فالكلام استئناف ابتدائى"[٣].

وفى هذه الآية تحول السياق وعدل عما يستوجبه الظاهر من مجئ المقابل، فظاهر السياق يقتضى أن يأتى من أوتى كتابه بشماله مقابلا لمن أوتى كتابه بيمينه ، كما أتى فى آية أخرى ،وذلك فى قوله تعالى فى سورة الحاقة(وَأَمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ) [٤]ولكنك تجد النظم هنا جاء مخالفا لما جاء عليه النظم فى سورة الحاقة ، فقد عدل النظم هنا عن المقابل لنكتة لا يؤديها فى هذا السياق مجئ الكلام على صورة التقابل ،ومع أن النظم فى الآية عدل عن مقابلة أصحاب اليمين بأصحاب الشمال إلا أنه جاء بما يتصل بهذا المقابل ويتعلق به ، وهو الوصف بالعمى،وذلك فى قوله :(ومن كان فى هذه أعمى).

فالنظم فى الآية "لم يذكر أصحاب الشمال تصريحا ولكنه ذكر–سبحانه – مايدل على حالهم القبيح "[٥] ففى مجئ الأعمى فى مقابل من أوتى كتابه بيمينه، والعدول به عما أوتى كتابه بشماله تصوير لقبح وفظاعة حال الكافر يوم القيامة ، فهى حال فيها تخبط وحيرة ومعاناة ، وهى حالة تشبه الحال التى كان عليها فى الدنيا ،فحالهم فى الدنيا كانت تشبه حال الأعمى فى حيرته وتخبطه وعدم أمنه من الوقوع فى الهلاك ،ولذا يقول الطاهر بن عاشور: "وعطف ومن كان فى هذه أعمى عطف القسيم على قسيمه فهو من حيز أما التفصيلية ،والتقدير وأما من

---

(١) سورة الإسراء من الآية ٦٦
(٢) –سورة الإسراء من الآية ٦٩
(٣) – التحرير والتنوير ١٦٧/١٥
(٤) – سورة الحاقة الآية ٢٥
(٥) –فتح القدير٢٩٣/٣

كان فى هذه أعمى ،ولما كان القسيم المعطوف عليه هم من أوتوا كتابهم باليمين علم أن المعطوف بضد ذلك يؤتى كتابه بالشمال، فاستغنى عن ذكر ذلك ، وأتى له بصلة أخرى ،وهى كونه أعمى حكما آخر من أحواله الفظيعة فى هذا اليوم"(١)

فالعمى فى الآية ليس على حقيقته، وذلك لأن المقصود بالعمى فى الدنيا الضلال والكفر وعد م الاهتداء إلا الحق، فشبه الكافر فى عدم اهتدائه إلى الحق، وتخبطه فى الضلال، وعدم وصوله إلى ما ينجيه من الهلاك بالأعمى،أما عمى الآخرة فمقصود به التخبط والحيرة والاضطراب الذى يعترى الكافر يوم القيامة بسبب كفره.

ففى الموضعين جاء العمى على سبيل الاستعارة إلا أن عمى الآخرة أشد بدليل قوله تعالى :(وأضل سبيلا).وقد عدل النظم فى الآية عن لفظ الشدة وآثر لفظ الضلال، فلم يقل فهو فى الآخرة أشد عمى ، وإنما قال :(وأضل سبيلا) "ليتأت ذكر السبيل،لما فى الضلال عن السبيل من تمثيل حال العمى وإيضاحه ؛لأن ضلال فاقد البصر عن الطريق فى حال السير أشد وقعا فى الإضرار منه وهو قابع فى مكانه ، فعدل عن اللفظ الوجيز إلى التركيب المطنب، لما فى الإطناب من تمثيل الحال وإيضاحه وإفظاعه وهو إطناب بديع"(٢)

ومما جاء فى بيان أحوال الناس فى الآخرة قوله تعالى :(فَأَمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا) (٣)

(١)- التحرير والتنوير ١٥/١٧٠،١٦٩
(٢) - المصدر نفسه ١٥/١٧٠
(٣) - سورة الانشقاق الآية ٧-١١

فقد جاءت هذه الآيات –أيضا– لتتحدث عن موقف الناس من الحساب ، وقد تحول السياق فيها وعدل عن مقابلة صاحب اليمين بصاحب الشمال ،وجاء (من أوتى كتابه وراء ظهره) ليكون بديلا عن المقابل وهو من أوتى كتابه بشماله، والسر فى هذا التحول والعدول هو إظهار بشاعة المنظر،وسوء الصورة ،وكأن هذه الصورة المقلوبة فى أخذ الكتاب تعكس ما كان عليه الكافر فى الدنيا من قلب الحقائق والأمور،وعدم السير على النهج الصحيح، فهو قد خالف ماكان يجب أن تكون عليه طبيعته وفطرته، فكذالك جاءت هذه الصورة التى ترسم صورة أخذ الكافر لكتابه يوم القيامة مخالفة للمعهود والمتعارف عليه،وقد لمح العلامة بن عاشور وجها آخر من وراء هذه الصورة ،وهى صورة أخذ الكتاب بالشمال ، وهى ما فيها من إظهار الغضب عليه بحيث لا ينظر مناوله كتابه إلى وجهه(١).

ويرى صاحب نظم الدرر أن السر فى العدول عن مقابلة من أوتى كتابه بيمينه بمن أوتى كتابه بشماله ،وإيثار التعبير بمن أوتى كتابه وراء ظهره هو استغراق" جميع جهة الوراء التى هى علم السوء؛ لأنه كان يعمل مالم يأذن به الله ،فكأنه عمل من ورائه مما يظن أنه يخفى عليه سبحانه ، فكان حقيقا بأن تغل يمينه إلى عنقه ،وتكون شماله إلى وراء ظهره"(٢).

وقد جعل البقاعى الآية هنا من قبيل الاحتباك حيث أن "ذكر اليمين أولاً يدل على الشمال ثانياً، وذكر الوراء ثانياً يدل على الأمام أولاً، وسر ذلك أنه ذكر دليل المودة والرفق بالمصافحة ونحوها في السعيد، ودليل الغدر والاغتيال في الشقي"(٣)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٣/٣٠

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي ٣٤٣/٢١الناشر: دار الكتاب الإسلامي لقاهرة

(٣) المصدر نفسه٣٤٣/٢١

ويكشف ابن العثيمين عن سر العدول عن المقابل فى هذه الآية فيقول: "هؤلاء الأشقياء والعياذ بالله ،يؤتى كتابه وراء ظهره وليس عن يمينه، وفى الآية الأخرى فى سورة الحاقة(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ)[١]،فقيل: إن من لا يؤتى كتابه بيمينه ينقسم قسمين، منهم من يؤتى كتابه بالشمال، ومنهم من يؤتى كتابه وراء ظهره، والأقرب – والله أعلم –أنه يؤتى كتابه بالشمال، ولكن تلوى يده حتى تكون من وراء ظهره؛ إشارة إلى أنه نبذ كتاب الله وراء ظهره، فيكون الأخذ بالشمال ،ثم تلوى يده إلى الخلف إشارة إلى أنه قد ولى ظهره كتاب الله عز وجل،ولم يبال به ،ولم يرفع به رأسا، ولم ير بمخالفته بأسا"[٢].

إذا فقد جاءت ثلاثة مواضع فى القرآن الكريم تحكى لنا موقف الناس من الحساب وكيفية أخذهم كتا ب أعمالهم ، استخدم النظم طريق التحول الأسلوبى بالعدول عن المقابل فى موضعين، الأول فى سورة الإسراء ، وذلك فى قوله تعالى:(فَمَن أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) والثانى فى سورة الانشقاق فى قوله: (فَأَمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا)

والموضع الثالث جاء فى سورة الحاقة فى قوله تعالى :(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ)[٣] مقابلا لقوله :(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ

(١) سورة الحاقة الآية ٢٥

(٢) تفسير جزء عم المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين إعداد وتخريج: فهد بن ناصر السليمان ١١٤/١ الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

(٣) سورة الحاقة من الآية ١٩

كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ)[١] ،وفى هذا الموضع تحققت المقابلة ولم يعدل النظم عنها كما عدل فى الموضعين السابقين .

وأرى أن سر هذا التنوع فى بيان حال الكافر عند أخذه الكتاب هو أن آية الحاقة تبين موقفه من الحساب ،وأنه من أصحاب الشمال ، أما آية الإسراء فهى تركز على الكشف عن الأحوال النفسية من الحيرة والاضطراب والتخبط وسوء الحال التى يكون الكافر عليها يوم الحساب، وأما آية الانشقاق فهى تجمع بين إظهار بشاعة وحقارة الصورة الشكلية الظاهرة التى يكون عليها الكافر، وبين الحالة النفسية السيئة التى توحى بها الصورة.

فالآيات الثلاث تتكامل وتتآزر فى الكشف عن الأحوال النفسية والحسية ، الظاهرة والباطنة للكافر يوم الحساب.

رابعا : فى الحديث عن أصناف الناس فى العبادة

قال تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)[٢]

هذا النوع من الناس الذى تتحدث عنه الآية جاء ضمن تقسيم أصناف الناس،هذا التقسيم الذى بدأ بقوله تعالى:(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ)[٣]. ثم جاء الصنف الثانى فى(ومنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)[٤] وجاءت الآية التى معنا لتحكى لنا

(١) سورة الحاقة من الآية ٢٥
(٢) سورة الحج الآية ١١
(٣) سورة الحج الآية ٣
(٤) سورة الحاقة الآية ٨

الصنف الثالث وقد" نزلت فى أعراب كانوا يقدمون على رسول الله –صلى الله عليه وسلم –مهاجرين من باديتهم، فإذا نالوا رخاء من عيش بعد الهجرة وبعد الدخول فى الإسلام أقاموا على الإسلام ،وإن نالوا بعد ذلك شدة وضيق عيش أو موت ماشية ونحوه ارتدوا على أعقابهم "(١)

والآية فيها تصوير دقيق للزحزحة فى الدين وعدم الثبات فيه،فقد شبهت الآية القلق والاضطراب والحيرة وعدم الاستقرار فى العبادة بحال الواقف على طرف شئ لا يقدر على الثبات عليه، فالكلام من قبيل الاستعارة التمثيلية ،ولذا يقول الزمخشرى: "هذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكون وطمأنينة، كالذى يكون على طرف من العسكر ،فإن أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن وإلا فر وطار على وجهه"(٢)

فالمنافق كما صورته الآية حاله غير ثابت ،بل مزحزح النفس لا يرضى إلا بالخير الدنيوى، ولايصبر على البلاء،وهذا ما صوره النظم القرآنى فى قوله :(فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) وكان مقتضى ظاهر هذا السياق القرآنى أن يقال: وإن أصابه شر، وذلك لمقابلته بقوله :(فإن أصابه خير) إلا أن السياق لم يسر على حسب ما يتطلبه ظاهره ،بل سلك طريق التحول الأسلوبى بالعدول عن المقابل وآثر التعبير بلفظ الفتنة عن لفظ الشر،

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه المؤلف : أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني المحقق : مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة ، بإشراف أ.د : الشاهد البوشيخي ٤٨٥١/١ الناشر : مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة الطبعة : الأولى ، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م

(٢) الكشاف ١٤٦/٣

فقيل : (وإن أصابته فتنة)، ويجيب العلامة الرازى عن سر هذا العدول فى الآية فيقول : " الخير ضد الشر، فلما قال : فإن أصابه خير اطمأن به كان يجب أن يقول :و إن أصابه شر انقلب على وجهه، الجواب : لما كانت الشدة ليست بقبيحة لم يقل تعالى : وإن أصابه شر ،بل وصفه بمالا يفيد القبح "[١]

ففى هذا العدول إشارة إلى أن كل ما يصيب الإنسان ليس شرا ،وإنما هو ابتلاء واختبار منه – سبحانه – للإنسان ، ليتبين به الشاكر من الجازع.

وقد عبر النظم القرآنى فى جانب الشر بالفتنة مع أن الخير –أيضا– فتنة وابتلاء كما قال تعالى :(وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فتنة)[٢] ،لأن " أكثر استخدام لفظ الفتنة والبلاء فيما يشتد ويثقل ،ولأن المنافق ليس عنده الخير إلا الخير الدنيوى، وليس عنده الشر إلا الشر الدنيوى ،لأنه لادين له ، فلذلك وردت الآية على ما يعتقدونه وإن كان الخير كله فتنة"[٣]

فالمنافق بين حالين صورهما النظم فى الآية ،وهما صورتان متقابلتان ، صورة الاطمئنان عند إصابة الخير، وصورة السخط والجزع التى صورها النظم بهذه الصورة الحسية التى تدل على سوء الحال، وفظاعة المنظر، وذلك فى قوله:(انقلب على وجهه) ، ومع أن الصورتين متقابلتان إلا أن النظم عدل عن اللفظ المقابل فى الصورة الثانية ،ولم يقابل الخير بالشر،بل قابله بالفتنة ،وذلك لإظهار خطأ ما يعتقده المنافق، فهو يضع الأمور فى غير موضعها ، فكل ما يصيب الإنسان هو خير ،ولكن المنافق لا يعرف من الخير إلا ما يعتقده هو خيرا ، ولا يعرف كذلك من الشر إلا ما يوافق هواه واعتقاده .

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٠٨/٢٣، ٢٠٩

(٢) سورة الأنبياء من الآية ٣٥

(٣) المصدر نفسه٢٠٨/٢٣

خامسا : فى توجيه النبى - صلى الله عليه وسلم- فى مجادلته ومخاطبته للكفار.

قال تعالى : (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)(١)

جاءت هذه الآية لتوجيه النبى –صلى الله عليه وسلم – لرده على الكفار فى تكذيبهم له ، وذلك لأنه" لما جرى ذكر الحق والباطل وكانوا يزعمون من مجموع أقوالهم أن النبى – عليه الصلاة والسلام –غير صادق فى دعوى الرسالة من الله كانت أقوالهم تقتضى زعمهم إياه على ضلال ،وكان الرد عليهم قاطعا بأنه على هدى بقوله :(قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)(٢)انتقل هنا إلى متاركة جدالهم وتركهم وشأنهم لقلة جدوى مراجعتهم"(٣).

ومن يتابع سير النظم فى هذه الآية يجده عدل عن التقابل الذى كان يقتضيه ظاهر السياق ، فكان هذا الظاهر يقتضى أن يقال مقابلا لقوله : (وإن ضللت فإنما أضل على نفسى) وإن اهتديت فإنما أهتدى لها ،إلا أن الأسلوب تحول وعدل عن هذا التقابل إلى ما جاء عليه نظم الآية، وهذا العدول فيه دلالة على أن ضلال الإنسان واقع بسبب نفسه، ومن كسب يده ، فالنفس هى التى تجره إلى الهلاك ،وتقوده إلى الهاوية ،أما الهداية فلم تنسب إلى النفس ،وإنما نسبت إلى الله تعالى ، فهى منه وبتوفيقه عزوجل ، فالنفس هى التى تأمر صاحبها بالسوء ، وفى المقابل كانت الهداية من عند الله عز وجل .

ولما كان الأمر كذلك ناسب أن يعدل النظم فى الآية ويتحول عن التقابل ، وعن سر العدول عن أسلوب التقابل فى الآية يقول العلامة البيضاوى :"قل إن ضللت عن الحق فإنما أضل على نفسى ، فإن وبال ضلالى عليها ؛لأنه بسببها ،إذ

---

(١) سورة سبأ الآية ٥٠

(٢) سورة سبأ٤٩

(٣) التحرير والتنوير ٢٣٩/٢٢

هى الجاهلة بالذات والأمارة بالسوء، وبهذا الاعتبار قابل الشرطية بقوله :(وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى) فإن الاهتداء بهدايته وتوفيقه"[١]

ويؤكد العلامة الزمخشرى توجيه العلامة البيضاوى لهذا العدول عن المقابل فيقول :"فإن قلت : أين التقابل بين قوله : (فإنما أضل على نفسى) وقوله :(فبما يوحى إلى ربى) وإنما كان يستقيم أن يقال :فإنما أضل على نفسى، وإن اهتديت فإنما أهتدى لها ، كقوله تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)[٢] وقوله :(فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)[٣]، أو يقال : فإنما أضل بنفسى ، قلت هما متقابلان من جهة المعنى ؛لأن النفس كل ما عليها فهو بها، أعنى أن كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بها وبسببها؛ لأنها الأمارة بالسوء، وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه ، وهذا حكم عام لكل مكلف ،وإنما أمر رسول الله –صلى الله عليه وسلم –أن يسنده إلى نفسه ؛ لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة حمله وسداد طريقته كان غيره أولى به "[٤]

هذا وقد لمح الطاهر بن عاشور ملمحا آخر للعدول عن التقابل فى الآية ، حيث جعل سر العدول عن التقابل إلى قوله تعالى:(وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى) هو عدم توهم أن الأمر قاصر على افتراض وقوع الضلالة وحدها عليه – صلى الله عليه وسلم – بل إن هذا الافتراض غير الحاصل يدور بين الضلال أو الهداية، يقول الطاهر بن عاشور:" وأما قوله:(وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى) فكالاحتراس من أن يكون حاله مقتصرا على فرض كونه مظنة الضلال ،

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ،المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن محمد الشيرازي البيضاوي المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي ٢٥١/٤الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ

(٢) فصلت من الآية ٤٦

(٣) الزمر من الآية ٤١

(٤) الكشاف٥٩٢/٣

مع ما فيه من الاعتراف لله بنعمته بأن ما يناله من خير فهو بإرشاد الله لا من نفسه "[١]

ولما كان الضلال بسبب النفس وحدها استخدم أسلوب القصر بإنما فى قوله :(فإنما أضل على نفسى) تأكيدا لعدم المشاركة فى هذا الضلال من الغير، وقصره على النفس،وجاءت باء السببية فى مقابل أسلوب القصر فى الجملة الأخرى وذلك فى قوله : (فبما يوحى إلى ربى) من أجل إثبات أن الهداية بتوفيق الله وهدايته ، لا بتوفيق وإرشاد أحد سواه.

هكذا كان للتحول الأسلوبى بالعدول عن المقابل أسراره ومقاصده ولطائفه التى لم تكن تتأتى وتتحقق بمجئ الأسلوب على طريقة التقابل .

سادسا : فى بيات أحوال الكفار وصفاتهم

قال تعالى : (إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا)[٢]

هذه الآية جاءت تعليلا للنهى عن الطاعة فى قوله تعالى : (وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا) [٣] فالعلة فى النهى عن طاعتهم هو " أن خلقهم الانصباب على الدنيا ، مع الإعراض عن الآخرة ،إذهم لا يؤمنون بالبعث "[٤].

وإن فى قوله :(إن هؤلاء) هى التى نبه عليها الإمام عبد القاهر وجعلها بمنزلة فاء السببية ،يقول الإمام : (واعلمْ أنَّ مِنْ شأنِ "إنَّ" إذا جاءتْ على هذا الوجهِ، أَن تُغْني غَناء "الفاءِ" العاطِفةِ مثلاً، وأنْ تُفيدَ من رَبْط الجملةِ بما قبلَها أمراً عجيباً. فأنتَ تَرى الكلامَ بها مستأنفًا غير مستأنف، ومقطوعًا موصولاً معاً.)[٥]

---

(١) التحرير والتنوير٢٢/٢٤٠

(٢) سورة الإنسان الآية ٢٧

(٣) سورة الإنسان من الآية ٢٤

(٤) التحرير والتنوير٢٩/٤٠٧

(٥) دلائل الإعجاز٢٧٣

وفى الإشارة إليهم ب(هؤلاء) دلالة على علم المخاطب بهم لشهرتهم بهذا الأمر لتكرر ذكرهم فى كتا ب الله تعالى .

وهذا الاسم (هؤلاء) عندما يطلق دون سبق ما يكون مشارا إليه فالمقصود به المشركون ، هذا ما ذكره الطاهر بن عاشور(١).

ومقابل حب العاجلة كره الآخرة أو تركها ،ولم يأت النظم على ما يستوجبه أسلوب التقابل ،وإنما عدل إلى قوله : (ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) ، وفى هذا التحول والعدول عن المقابل مايدل على قصور عقولهم ، وشدة غبائهم ،وسوء اختيارهم وتفضيلهم ، فقد آثروا ما هو زائل وعاجل على ما هو باق وخالد ،فمن أجل هذه الأمور " ذكر الدنيا بوصف العاجلة توطئة للمقصود من الذم ؛ لأن وصف العاجلة يؤذن بأنهم آثروها؛ لأنها عاجلة، وفى ذلك تعريض بتحميقهم إذ رضوا بالدون ؛ لأنه عاجل ، وليس ذلك من شيم أهل التبصر"(٢).

إذا فقد استخدم النظم فى الآية بدلا من المقابل ما يدل على أنهم تركوا ما هو أولى بالتمسك به والحرص عليه ، واستبد لوه بما هو أدنى وأقل ،فقوله : (ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) " واقع موقع التكميل لمناط ذمهم وتحميقهم ؛ لأنهم لو أحبوا الدنيا مع الاستعداد للآخرة لما كانوا مذمومين "(٣).

فالتحول الأسلوبى بالعدول عن المقابل هنا فى هذه الآية فيه إظهار لأهمية المتروك ، فرغم أهميته وعظمه ورفعة شأنه تركوه ، ومبالغة فى هذا الترك جاء التصوير الحسى فى قوله : (وراء ظهورهم) للدلالة على قوة الترك ، وشدة الغفلة والنسيان ، وفى هذا مزيد من الذم وحقارة الشأن . وإظهارا لعظمة المتروك جاء التنكير فى قوله : (يوما) مع وصف هذا اليوم بالثقل ،ففى هذا دليل على شدة

---

(١) ينظر المصدر نفسه ٢٩/ ٤٠٧

(٢) المصدر نفسه ٢٩/٤٠٨

(٣) المصدر السابق ٢٩/٤٠٨

هول هذا اليوم ،وعظم شأنه مما كان يستوجب التمسك به ، والحرص عليه ، والاستعداد له ، وترك كل مايشغل عنه من أمور الدنيا .

هكذا فإن العدول عن المقابل فى الآية كان له مغزى وهدف مقصود داخل السياق ، وكان مجئ النظم عليه أبلغ مما يتطلبه ظاهر السياق من المجئ على المقابل .

سابعا : **فى الحديث عن طبائع النفس البشرية**

قال تعالى : (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)[١]

فى هذا السياق القرآنى "يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم، لا علم له بالعواقب، يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه، وأنه إذا {قدر عَلَيْهِ رِزْقُهُ} أي: ضيقه، ، أن هذا إهانة من الله"[٢]

ويربط العلامة الزمخشرى بين هذه الآية وما قبلها فيقول:" فإن قلت بم اتصل قوله : فأما الإنسان؟ قلت بقوله : إن ربك لمبالمرصاد، كأنه قيل:إن الله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة والسعى للعاقبة، وهو مرصد بالعقوبة للعاصى ، فأما الإنسان لا يريد ذلك ولا يهمه إلا العاجلة "[٣]

---

(١) سورة الفجر الآية ١٥، ١٦

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي) المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ٩٢٣/١الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠

(٣) الكشاف ٧٤٩/٤

فالنظم القرآنى فى هذه الآية يكشف عن أحوال الإنسان المتغيرة والمتقلبة على حسب ما يتفق مع أهوائه وشهواته ،فهو راض عند بسط الرزق ،ساخط عند تقديره ، والأسلوب القرآنى فى عرض الصورتين المتقابلتين للإنسان تحول وعدل عما تقتضيه المقابلة فى الصورة الثانية ،حيث إن النظم لم يذكر لفظ الإهانة المقابل للإكرام الذى جاء فى الصورة الأولى فى قوله: (فأكرمه ونعمه).

وعن سر هذا العدول عن المقابل يقول الزمخشرى : "فإن قلت هلا قال : فأهانه وقدر عليه رزقه كما قال : فأكرمه ونعمه ، قلت: لأن البسط إكرام من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلا من غير سابقة ، وأما التقدير فليس بإهانة له ؛ لأن الإخلال بالتفضل لا يكون إهانة ولكن تركا للكرامة ، وقد يكون المولى مكرما لعبده ومهينا له، وغير مكرم ولا مهين ،وإذا أهدى إليك زيد هدية قلت :أكرمنى بالهدية ، ولا تقول :أهاننى ولا أكرمنى إذا لم يهد لك"(١).

وقد رأى الرازى أن العدول عن المقابل فى الآية فيه تكذيب لاعتقاد الإنسان الذى يرى أن في تقدير الرزق إهانة من الله عز وجل ، فالله لا يهين عبده ولكن إهانة العبد تأتيه من قبل نفسه ، ومن أفعاله الذاتية ،يقول الرازى :" لمَّا قَالَ فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ: فَأَكْرَمَهُ ... فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ يَجِبُ أَنْ يَقُولَ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي: فَأَهَانَهُ فَيَقُولُ: رَبِّي أَهانَنِ لَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ وَالْجَوَابُ: لِأَنَّهُ فى قوله (أكرمن) صادق ، وفى قوله : (أهانن) غير صادق ، فهو ظن قلة الدنيا وتقتيرها إهانة، وهذا جهل واعتقاد فاسد ، فكيف يحكى الله – سبحانه – ذلك عنه"(٢).

(١) الكشاف ٤ / ٧٤٩، ٧٥٠
(٢) مفاتيح الغيب ٣١/ ١٥٦

إذا فالسر فى العدول عن المقابل فى الآية هو الدلالة على أن الله – عــز وجل –لا يهين عبده أبدا ، وأن وقوع الإهانة من الله لعبده اعتقاد خاطئ ومردود عليه ، فهو وضع للأمور فى غير موضعها ، والحقيقة أن سعة الرزق ابتلاء من الله لعبده ، وكذا ضيق الرزق ابتلاء من الله ، ولا يعلم العبد هل الخير فى الســعة أو الضيق ؟ ، ولكن الإنسان بعقله القاصر يقيس الأمور بمقاييسه الدنيوية الزائلة فتجد أحكامه – غالبا – تابعة لهواه.

المبحث الثانى:

التحول الأسلوبى بالعدول عن المماثل فى السياق القرآنى.

التحول الأسلوبى بالعدول عن المماثل هو عكس الأسلوب السابق، وهو التحول الأسلوبى بالعدول عن المقابل،لأن المتوقع والمترقب هنا والذى يقتضيه الظاهر هو أن يأتى النظم مماثلا لما قبله ، إلا أن السياق يخرج عن هذا المترقب والمتوقع ، فيأتى على خلاف ما يترقبه السامع ، ويخرج على مايقتضيه ظاهر السياق .

ويأتى هذا الأسلوب– غالبا – فى الحديث عن الصورتين اللذين يجمعهما شئ واحد إلا أنهما متضادان ، ومتقابلان فى هذا الشئ ، كالحديث عن مشاعر اليهود المتضادة تجاه المسلمين فى الخير والشر ، وكالاشتراك فى الجزاء مع تقابل الجزاء بين الشقاء والنعيم ، وكالحديث عن ضلال النفس البشرية وهدايتها إلى غير ذلك من الصور، وكون الصورتين يجمعها شئ واحد ورابط مشترك ، فإن هذا يقتضى التماثل فى النظم ،ويجعل السامع أو القارئ مترقبا لهذا التماثل ، إلا أن السياق يفاجئه بالخروج عن المماثلة فى النظم ، لدلالات ومقاصد لا يمكن أداؤها بالأسلوب المتوقع .

ومع أن التحول بالعدول عن المماثل عكس التحول بالعدول عن المقابل إلا أن بينهما سمات عامة مشتركة ، فكل منهما يحقق الإيجاز فى الكلام ،ويوقظ السامع والقارئ ،ويثير انتباهه، ويحفزه إلى التفكير فى المعنى الذى عدل إليه، و البحث عن دوافع هذا العدول وأسراره ولطائفه ، وهذا ما ستكشف عنه السياقات التالية.

أولا : فى التحذير من اتخاذ اليهود والمنافقين بطانة

قال تعالى : (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)(١)

جاءت هذه الآية فى سياق تحذير المؤمنين من اتخاذ اليهود والمنافقين بطانة من دون المؤمنين، هذا السياق الذى بدأ بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)(٢)، ثم بين السياق باللفظ الصريح كراهيتهم الصريحة للمؤمنين فى قوله : (هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) ، ثم جاءت هذه الآية التى معنا لتبين بعض دلائل هذه الكراهية، فهى تكشف لنا عن بعض طباعهم ومشا عرهم تجاه المؤمنين، وقد" قيل: إنها نزلت فى قوم من المسلمين صافوا بعض المشركين من اليهود والمنافقين المودة لمصاحبة فى الجاهلية فنهوا عن ذلك"(٣).

فالآية استئناف بيانى جاء ليكشف عن العداوة الشديدة التى يكنها هؤلاء لأهل الإسلام، ولأجل خدمة هذا الغرض المقصود من الآية عدل النظم عن المماثلة فى الآية فعبر فى جانب الحسنة بلفظ المس ،أما فى جانب السيئة فلم يستخدم اللفظ ذاته ، وإنما عدل عن هذا اللفظ وجئ بلفظ الإصابة تنبيها على هذه العداوة، ولفتا للانتباه إليها ، وبيانا لشدتها حتى يقر فى نفوس المؤمنين هذا الأمر، ويتبينوا حقيقته فيحذروه ، ولذا يقول ابن عطية : " وذكر- تعالى - المس فى

---

(١) سورة آل عمران ١٢٠

(٢) سورة آل عمران الآية ١١٨

(٣) النكت والعيون المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي المحقق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ٤١٩/١ الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان

الحسنة ليبين أنه بأدنى طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين ، ثم عادل ذلك بالسيئة بلفظ الإصابة ، وهى عبارة عن التمكن ؛لأن الشئ المصيب لشئ فهو متمكن منه أو فيه ، فدل هذا المنزع البليغ على شدة العداوة، إذ هو حق لا يذهب عند الشدائد ، بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين ، وهكذا هى عداوة الحسد فى الأغلب ، ولا سيما فى مثل هذا الأمر الجسيم الذى هو ملاك الدنيا والآخرة "[١].

إذا فالعدول من لفظ المس إلى لفظ الإصابة فيه دلالة على أن الشر مهما كانت قوته ، ومهما كان تمكنه من المسلمين فإن ذلك هو مصدر فرحهم وسعادتهم .، بل إنه كلما قوى هذا الشر كلما قويت فرحتهم ، وفى المقابل فإنه بمجرد وقوع أدنى خير بالمؤمنين فإن ذلك يسوؤهم ويحزنهم ، ولذا يقول الشهاب فى تفسير معنى المس :" وقد صرحوا بأنه أدنى درجات الإصابة حتى قالوا فى قوله تعالى : (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) : إن المس ينبئ عن أدنى مراتب الإصابة ، ويدل على أن أدنى إصابة خير تسؤهم ، وأما الشر والسيئة فإنما تسرهم الإصابة منه والوصول التام بحيث يعتد به "[٢].

هذا وقد رأى الطاهر بن عاشور أن المس هو الإصابة ،وأن التعبير بأحدهما مكان الآخر هو نوع من التفنن فى التعبير [٣].

---

(١) المحرر الوجيز ٤٩٨/١

(٢) حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي ١٩٠/٢
دار النشر: دار صادر – بيروت

(٣) التحرير والتنوير ٦٨/٤

ولا أتفق مع الطاهر بن عاشور فيما ذهب إليه ؛ لأن المس غير الإصابة ، هذا بالإضافة إلى أنه لا يكفى أن تكون العلة فى تغاير التعبير بين المس والإصابة هو التفنن فى التعبير خاصة فى القرآن الكريم ، لأن كل كلمة فيه لها موضعها الخاص والأليق بها ، والتى لا يمكن أن يقوم فيه مقامها غيرها من البدائل .

إذا فالعدول عن المماثلة فى استخدام الألفاظ فى جانب الحسنة والسيئة فى الآية مقصود، وجئ به لأسرار ونكات وغايات لا تتأتى بمجئ الكلام على نمط واحد ، ولا يكفى أن تكون العلة فيه هى التفنن فى التعبير.

ثانيا : فى التحذير من التفرق والاختلاف

قال تعالى : (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[١]

جاءت هاتان الآيتان فى سياق تحذير الأمة الإسلامية من التفرق ، وحثها على الاعتصام ، وقد بدأ هذا السياق بقوله : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا)[٢].

وفى قوله : (يوم تبيض وجوه) بيان لزمن العذاب العظيم الذى ذكر فى الآية السابقة فى قوله : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[٣]

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٠٦،١٠٧
(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٢ ،١٠٣
(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٥

:" وفى تعريف هذا اليوم بحصول بياض وجوه وسواد وجوه فيه تهويل لأمره، وتشويق لما يرد بعده من تفصيل أصحاب الوجوه المبيضة والوجوه المسودة، ترهيبا لفريق ،وترغيبا لفريق آخر"(١).

وقد قسم النظم القرآنى الناس فى هذا اليوم قسمين ، الأول فى قوله : (فأما الذين اسودت وجوههم) والقسم الثانى فى قوله : (و أما الذين ابيضت وجوههم) وفى هذا التقسيم تفصيل للإ جمال الذى فى قوله : (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) .

والمدقق فى السياق يجد التحول الأسلوبى بالعدول عن المماثلة فى النظم فى بيان حال كل من الفريقين ، فهناك تفاوت فى النظم ، ففى جانب الذين اسودت وجوههم جاء الاستفهام الإنكارى (أكفرتم بعد إيمانكم) وهو يحمل توبيخا وتعنيفا لهم لشناعة جرمهم ، ثم جاء الأمر بالعذاب فى قوله : (فذوقوا العذاب) ثم جاءت علة الأمر فى قوله : (بما كنتم تكفرون) ، وفى جانب الذين ابيضت وجوههم عدل عن مماثلة ما جاء من نظم فى الحديث عن الفريق الأول ، وهم الذين اسودت وجوههم ، فلم يتعرض لأى قول أو استفهام موجه إلى الذين ابيضت وجوههم ، بل جاء الجزاء مباشرة فى قوله : (ففى رحمة الله).

وقد عدل النظم –أيضا – عن المماثلة فى التعليل ، ففى جانب الذين اسودت وجوههم ذكر العلة فى العذاب فى قوله : (بما كنتم تكفرون) ، أما فى جانب الذين ابيضت وجوههم فقد عدل النظم عن ذكر العلة واكتفى بذكر الجزاء بقوله : (ففى رحمة الله) ثم ذكر الخلود فى هذه الرحمة بقوله : (هم فيها خالدون) .

---

(١) – التحرير والتنوير ٤٤/٤

والعدول عن المماثلة فى النظم فى بيان جزاء كل من الفريقين مقصود من ورائه نكات ولطائف بلاغية يشير ابن حيان إلى بعضها فى قوله : "انظر تفاوت ما بين التقسيمين ، هنا جمع لمن اسودت وجوههم بين التعنيف بالقول والعذاب ، وهنا جعلهم مستقرين فى الرحمة ، فالرحمة ظرف لهم وهى شاملتهم .. وذكر الخلود للمؤمن ولم يذكر ذلك للكافر ؛ إشعارا بأن جانب الرحمة أغلب ، وأضاف الرحمة هنا إليه ولم يضف العذاب إلى نفسه ، بل قال : (فذوقوا العذاب)، ولما ذكر العذاب علله بفعلهم ولم ينص على سبب كونهم فى الرحمة"(١).

ففى تعليل العذاب وعدم نسبته إليه -سبحانه – إشعار بأن الله – عز وجل – لا يريد أن يقع منه العذاب لعباده ، ولكن العباد بأعمالهم هم الذين يجلبون العذاب لأنفسهم ، فالتعليل فى قوله : (بما كنتم تعملون) والعدول عن الإتيان بمثله فى المقابل دليل على أن العذاب يقع للمرء بسبب أعماله وجرائمه ، أما دخول الجنة فليس بعمل الإنسان ، وإنما هو برحمة الله وفضله ومننه ،وهذا تصديق لما روى عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللهِ "، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: " وَلَا أَنَا. إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ "(٢)

ومن هنا يظهر التناسق والتوافق بين ماجاء فى كتاب الله تعالى ،وما جاء فى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، مما يؤكد أن السنة جاءت مؤكدة للقرآن وموضحة له .

---

(١) البحر المحيط ٢٩٦/٣

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون ٦٣/١٨ الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م

ثالثا : فى الحديث عن الأمم السالفة.

قال تعالى:(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)[١]

هذه الآية وردت فى سياق دعوة نوح لقومه ،وقد بدأ هذا السياق بقوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)[٢] فالخطاب فى الآية موجه من نوح – عليه السلام– لقومه ، وقد بدأ هذا الخطاب بهذا النداء الحانى المتلطف الذى يحثهم به على الإقبال عليه ، والاستجابة لدعوته ، فهم قومه الذين ولد فيهم ، وعاش بينهم، ، فهو لا يطلب منهم أجرا على هذه الدعوة ، و إنما يطلب منهم الاستماع إلى نداء الحق، والامتثال لأوامر خالقهم.

وقد عدل النظم فى هذا السيا ق عن المماثلة ، فاستخدم لفظ (مالا) ولم يستخدم لفظ الأجر ، فلم يقل :لا أسالكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الله ، وإنما عدل من لفظ الأجر إلى لفظ المال ، وفى هذا العدول إشارة إلى ما يمكن أن يتبادر إلى أذهانهم من التفكير المادى ، والمقاييس الدنيوية التى يمكن أن تظن أن الدعوة عمل كسائر الأعمال الدنيوية التى لها مقابل مادى ، وقد جاء بلفظ (مالا) نكرة فى سياق النفى ، للدلالة على نفى طلب أدنى درجات الاستفادة الدنيوية فى مقابل الدعوة إلى الله .

وفى سر العدول عن المماثلة فى الآية يقول الطاهر بن عاشور : " والمخالفة بين العبارتين فى قوله :(مالا) و(أجرى) تفيد أنه لا يسأل من الله مالا ، ولكنه يسأل ثوابا "[٣] وهنا سؤال يتبادر إلى الأذهان ، وهو إذا كان نظم الآية هنا عدل عن مماثلة لفظ الأجر إلى لفظ المال ، وفى آية هود جاء السياق

---

(١) سورة هود الآية ٢٩
(٢) سورة هود الآية ٢٥
(٣) التحرير والتنوير١٢/٥٥

على المماثلة ، فاستخدم لفظ الأجر ولم يستخدم لفظ المال ، فقال تعالى فى خطاب هود لقومه : (يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ)(١)، فأى اللفظين أبلغ ، الأجر أم المال ؟ أقول كل لفظ من اللفظين جاء مناسبا لسياقه لأننا" لو لا حظنا سياق القصتين لوجدنا أنه فى قصة نوح (عليه السلام) قال تعالى : (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) جاء ذكر خزائن الله فى الآية، والمال يوضع فى الخزائن، فاقتضى ذكر كلمة (مالا) فى قصة نوح ، أما فى قصة هود(عليه السلام) فلم ترد ذكر الخزائن، وإنما قال : (أجرا) لأن الأجر عام "(٢).

ولما كان مجئ نفى طلب المال يوهم عدم طلب الأجر على الدعوة جاء الاحتراس فى قوله : (إن أجرى إلا على الله) ، ليدفع هذا الإيهام ، ويبين أنه يطلب أجرا على هذه الدعوة ، ولكن هذا الأجر من الله وحده لا من أحد سواه .

وقد عدل النظم هنا فى آية نوح – عليه السلام – عما جاء عليه المقصور عليه الأجر فى آية هود، فقد جاء المقصور عليه الأجر فى آية نوح لفظ الجلالة (الله)، أما فى آية هود فقال : (إن أجرى إلا على الذى فطرنى) فجاء المقصور عليه طلب الأجر الذى فطرنى ، "والسبب أنه لو نظرنا من ناحية السمة التعبيرية فى القصتين لوجدنا أن كلمة (الله) وردت فى قصة نوح –عليه السلام– عشر مرات ، بينما وردت ثلاث مرات فى قصة هود عليه السلام. هذا من ناحية ، وهناك أمر آخر، وهو أنه تعالى ذكر في قصة نوح (عليه السلام) كلمة (الله) اسم علم، وفي هود ذكر (الذي فطرني) أي عدّى الفعل إلى ذاته ،

---

(١) سورة هود الآية ٥١

(٢) لمسات بيانية المؤلف: فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي٨٧٤ وهى تفريغ لحلقات ومحاضرات مطبوعة ومرقمة آليا ومرفوعة على موقع الشاملة فيها اختلاف وزيادة عن الكتاب المطبوع بهذا الاسم .

أي ضمير المتكلم، كما نلاحظ في قصة هود ارتباط الأمور بشخص هود عليه السلام (إن نقول إلا اعتراك[١]، فكيدونى[٢] ، إنى توكلت[٣]، ربى [٤]) فمن الذي سينجيه من الكيد ؟ الذي فطره ، فهو الذي خلقه ويحفظه من كل سوء ، فالأمر- إذن – شخصي وليس عامّاً ، فاقتضى ذكر (الذي فطرني) ، كذلك في سورة هود قال تعالى: (فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) [٥]، وهذه الآية تدل على أن الله تعالى يفطر قوماً آخرين غيرهم، فالذي فطرني أنسب للذكر في قصة هود (عليه السلام) من كلمة الله التي هي أنسب في قصة نوح عليه السلام"[٦].

رابعا : فى الحث على اللين والتلطف فى الدعوة.

قال تعالى : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)[٧]

نزلت هذه الآية على رسول – الله صلى الله عليه وسلم – "بمكة فى وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف"[٨].

---

(١) سورة هود من الآية ٥٤
(٢) سورة هود من الآية ٥٥
(٣) سورة هود من الآية ٥٦
(٤) سورة هود من الآية ٥٦
(٥) سورة هود الآية ٥٧
(٦) لمسات بيانية ٨٧٥.
(٧) سورة النحل الآية ١٢٥
(٨) تفسير القرطبى ٢٠٠/١٠

فالأمر هنا فى قوله : (ادع) موجه إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – وفيه إرشاد وحث على التلطف فى الدعوة ، والرفق واللين فيها ، وقد سبق هذا الأمر بأمر آخر وجه إليه – صلى الله عليه وسلم – فى نفس السياق وذلك فى قوله تعالى : (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[١] وفى تتابع هذين الأمرين الموجهين للنبى فى هذا السياق دلالة على أن الدعوة إلى سبيل الله التى أمر بها النبى هى نفسها الدعوة إلى ملة إبراهيم عليه السلام .

وقد تحول الأسلوب فى هذه الآية وعدل عن المماثلة ، حيث إنه فى جانب الحديث عن الضال جاء بقوله :(هو أعلم بمن ضل عن سبيله) وحق المماثلة أن يقال : وهو أعلم بمن اهتدى إلى سبيله ،إلا أن السياق لم يسر هذا المسار ، بل عدل عن المماثلة إلى قوله : (وهو أعلم بالمهتدين) ، والسر فى هذا العدول عن المماثلة هو " أن الضلال عن السبيل هو الضلال ، وهو كاف فى الضلال ، لأن الضلال لا يكون إلا فى السبيل ، وأما بعد الوصول فلا ضلال، ولأن من ضل عن سبيله لا يصل إلى المقصود سواء سلك سبيلا أم لم يسلك، وأما من اهتدى إلى سبيل فلا وصول إن لم يسلكه ، ويصحح هذا أن من ضل من غير سبيله فهو ضال ، ومن اهتدى إليها لا يكون مهتديا إلا إذا اهتدى إلى كل مسألة يضر الجهل بها الإيمان، فكان الاهتداء اليقينى هو الاهتداء المطلق، فقال : بالمهتدين "[٢]

فالاهتداء ليس واقعا وحاصلا بمجرد الوصول إلى السبيل ، فقد يصل الإنسان إلى سبيل الهداية ولكنه لا يسلكها، ولذا جاء الاهتداء مطلقا دون تقييد بالسبيل ، أما الضلال فقيد بقوله : (عن سبيله) ؛لأن الإنسان إذا ضل السبيل

(١) سورة النحل الآية ١٢٣
(٢) مفاتيح الغيب٢٩/٢٦٨

وصف بأنه ضال له ،وكان مجرد البعد عن السبيل كافيا فى الوصف بالضلال ، وهذا من أسرار العدول عن المماثلة فى نظم الآية.

وقد جاء ضمير الفصل فى قوله : (هو أعلم) ؛ ليؤكد اختصاص الله – تعالى– بهذا العلم ، العلم بالضال عن السبيل ،والعلم بالمهتدى إليه ، وهذا التأكيد للعلم فيه تحفيز على الدعوة ، وحث على اللين فيها ، والمجادلة بالحسنى ، وفيه – أيضا – تسلية للنبى – صلى الله عليه وسلم – لأن أمر الهداية والضلال غير موكل إليه ، فهو غير مطالب بهدايتهم ، وإنما هو مطالب بدعوتهم إلى الهداية ، وفى هذا تصديق لقوله تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ) [١] وقوله : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ)[٢] .

خامسا : فى الحث على تبليغ الدعوة

قال تعالى : (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)[٣]

جاءت هذه الآية تعليلا لأخذ الميثاق فى قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقاً غَلِيظاً)[٤]

واللام هنا فى هذا التعليل (ليسأل)" يجوز أن تكون لام كى ، أى لكى يسأل الصادقين من النبيين عن صدقهم فى تبليغ الرسالة إلى قومهم ، وفى هذا وعيد لغيرهم ، لأنهم إذا كانوا يسألون عن ذلك فكيف غيرهم ؟ وقيل ليسأل الأنبياء عما

---

(١) سورة البقرة ٢٧٢
(٢) سورة القصص الآية ٥٦
(٣) سورة الأحزاب الآية ٨
(٤) سورة الأحزاب الآية٧

أجابهم به قومهم كما فى قولـــه : (فَلَنَسْـــأَلَنَّ الَّـــذِينَ أُرْسِـــلَ إِلَـــيْهِمْ وَلَنَسْـــأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)[١] ويجوز أن تتعلق بمحذوف ، أى فعل ذلك ليسأل "[٢].

وقد اتخذ النظم فى قوله : (ليسأل) طريق الالتفات ، وذلـــك لأن الحـــديث السابق فى قوله : (وإذ أخذنا من النبيين) جاء بطريق التكلم وهنا فى (ليسأل) جاء بضمير الغيبة العائد إلى الله تعالى ، والسر فى هذا الالتفات هو أن الجـــزاء هو مناط الاهتمام ، وهو العلة فى أخذ الميثاق والعهد على الأنبياء، فجاء الالتفات للفت الانتباه إلى علة أخذ الميثاق .

وهذا العهد مأخوذ على الأنبياء بعمومهم ،ومنهم أولو العزم الذين ذكـــروا تفصيلا فى الآية ، وذكرهم من باب ذكر الخاص بعد العام، للاهتمام بهم ، وبيـــان منزلتهم بين الأنبياء .

ولما كان سؤال الصادقين وعذاب الكافرين هو العلة فى أخذ العهد ، وكان هو مناط الاهتمام خالف النظم فيه بطريقين ، الأولى هى طريقة الالتفـــات التـــى أشرنا إليها فى قوله : (ليسأل) ، والطريقة الثانية هى طريقة التحـــول بالعـــدول عما تقتضيه المماثلة فى النظم ، فالمماثلة تقتضى أن يقال : ويسأل الكافرين عن كذبهم ، وذلك تبعا للنظم فى (ليسأل الصادقين عن صدقهم) وقدعدل النظم عن المماثلة إلى ما هو مذكور فى قوله : (وأعد للكافرين عذابا أليما) وكأنهم ليس عندهم ما يسألون عنه ، فقد ارتكبوا ما يجعلهم يستحقون العذاب دون مساءلة ، لأنهم ارتكبوا أكبر الكبائر وهو الشرك بالله ، وهذا وحده كاف فى استحقاق العذاب ، وفى هذا العدول –أيضا – ما يدل على شدة العذاب المعد لهم ، وبيـــان أنـــه إذا كان السؤال للصادقين ، فكيف يكون الأمر مع الكافرين ، إنه العذاب الأليم المعـــد والمجهز ثوابا وجزاء على كفرهم .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٦

(٢) فتح القدير ٣٠٤/٤

هذا بالإضافة إلى ما فى العدول عن المماثلة فى النظم من بيان اختلاف موقف الصادقين وموقف الكافرين عند السؤال ، فسؤال الصادقين لإكرامهم ، وبيان أن النعيم الذى سينالوه هو جزاء لهذا الصدق والوفاء بالعهد ، أما سؤال الكافرين فهو إهانة لهم ،وتقرير بجرمهم ، وبيان لأحقيتهم العذاب الأليم الذى أعد لهم .

فالنظم القرآنى فى عدوله عن المماثلة هنا بإثبات السؤال للكافرين يظهر سرعة لحوق العذاب بهم يوم القيامة ، ويبين أنهم لا حاجة لسؤالهم ، فالله أعلم بحالهم وأعلم بما يستحقون ، ولذا جاء قوله : (للكافرين) دالا على ما جعلهم يستحقون هذا العذاب، فهذا الوصف هو سبب شدة العقوبة ، ثم جاء وصف العذاب بالأليم ليدل على تناسب الجزاء مع الذنب ، فقوة الجزاء نتجت عن قوة الذنب ، وليس بعد الكفر ذنب .

وفى توجيه العدول عن مماثلة النظم فى الآية أقوال للعلماء، تظهر فى توجيههم لقوله تعالى : (وأعد للكافرين عذابا أليما) فقد قيل " وأعد معطوف على أخذنا؛ لأن المعنى : أن الله أكد على الأنبياء الدعاء إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين، وأعد للكافرين عذابا أليما ، أو على مادل عليه ليسأل الصادقين ، كأنه قال : فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين "[١]، وقد أجاز أبو حيان أن يكون الكلام فى الآية من قبيل الاحتباك " حذف من الأول ما أثيب به الصادقون ، وهم المؤمنون، وذكر ت العلة ، وحذف من الثانى العلة ، وذكر ما عوقبوا به ، وكان التقدير : ليسأل الصادقين عن صدقهم فأثابهم ، ويسأل الكافرين عما أجابوا به رسلهم ..وأعد لهم عذابا أليما ، فحذف من الأول ما أثبت مقابله فى الثانى ، ومن الثانى ما أثبت مقابله فى الأول ، وهذه طريقة بليغة "[٢]

(١) البحر المحيط ٤٥٦/٨
(٢) المصدر نفسه٤٥٦/٨

سادسا: فى سوق الأدلة على قدرة الله ووحدانيته.

قال تعالى : (لَا الشَّمْسُ ينبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[١]

هذه الآية تتحدث عن آية من آ يات الله فى كونه ، وهى آية تنظيم الليل والنهار وحركة دوران الشمس والقمر فيهما ، وهى آية عظيمة تثبت قدرة الله – تعالى – فى تصريف الكون .

وقد جاءت الآية فى سياق آيات " جعلها الله –عز وجل – أدلة على القدرة ووجوب الألوهية "[٢]. وقد بدأت هذه الأدلة الكونية بقوله : (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنهُ يَأْكُلُونَ)[٣] ولما كان السياق العام فى سورة يس يدور حول قضية البعث ، وإنكار الكفار له جاء ت هذه الآيات والدلائل الكونية المشاهدة لتثبت قدرة الله تعالى على البعث.

ولما كان الهدف من الآية أن تضيف إلى سياقها دليلا من هذه الأدلة ،وهو تحكمه التام – سبحانه – فى حركة نظام الشمس والقمر بد أت الآية بالجملة المنفية (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) وقد تقدم المسند إليه الشمس على الفعل ، وهذا التقديم أبلغ من " لا ينبغى للشمس ، كما أن أنت لا تكذب بتقديم المسند إليه آكد من لا تكذب أنت ، لاشتمال الأول على تكرر الإسناد، ففى ذكر حرف النفى مع الشمس دون الفعل دلالة على أن الشمس مسخرة ، لا يتيسر لها إلا ما أريد منها وقدر لها "[٤].

---

(١) سورة يس الآية ٤٠

(٢) المحرر الوجيز٤/٤٥٣

(٣) سورة يس الآية ٣٣

(٤) روح البيان المؤلف: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولى أبو الفداء٧/٤٠١ الناشر: دار الفكر – بيروت الناشر: دار الفكر – بيروت

وفى الجملة المنفية الثانية يلفت النظر فيها تحول الأسلوب وعدوله عن مماثلة ما جاء فى الجملة الأولى من ألفاظ ، فقد استخدم السياق لفظ الإدراك فى الجملة الأولى فقيل : (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) وكان حق المماثلة يقتضى أن يقال: ولا الليل يدرك النهار، إلا أن النظم عدل عن مماثلة لفظ الإدراك إلى لفظ السبق فقيل :(ولا الليل سابق النهار) ، ويكشف العلامة الزمخشرى عن سر العدول عن المماثلة فى الآية فيقول:" فإن قلت : لم جعلت الشمس غير مدركة، والقمر غير سابق ؟ قلت:لأن الشمس لا تقطع فلكها إلا فى سنة ، والقمر يقطع فلكه فى شهر ، فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك، لتباطئ سيرها عن سير القمر، وكان الليل خليقا بأن يوصف بالسبق "[١] .

فهذا العدول عن المماثل فى الآية يشير إلى اختلاف حركة الدوران لكل من الشمس والقمر ، فلفظ الإدراك يدل على بطء حركة الشمس وطول مدة دورانها ، بينما يشير لفظ السبق الذى جاء مع الليل فى قوله : (ولا الليل سابق النهار) إلى سرعة الدوران، ولذا يقول الشهاب :" وتبديل الإدراك وهو اللحوق بالسبق على هذا القيل ، لأنه مناسب لسرعة سير القمر ، إذ السبق يشعر بالسرعة ، والإدراك بالبطئ كما لا يخفى "[٢].

هذا وقد جعل العلامة البقاعى العدول عن المماثل فى الآية من قبيل الاحتباك حيث "نفى أولا إدراك الشمس لقوتها دليلا على ما حذف من الثانية من نفى إدراك القمر للشمس، وذكر ثانيا سبق الليل النهار، لما له من القوة بما يعرض من النهار فيغشيه دليلا على حذف سبق النهار الليل أولا "[٣].

---

(١) الكشاف ١٨/٤

(٢) حاشية الشهاب ٢٤٢/٧

(٣) نظم الدرر ١٣٢/١٦، ١٣٣

وقد عدل النظم – أيضا –عن المماثلة لصيغة الفعل تدرك ، وكان حق المماثلة لهذ الصيغة أن يقال : ولا الليل يسبق ، وإنما عدل السياق إلى صيغة اسم الفاعل سابق وذلك لأن" حركة الشمس التى لا تدرك بها القمر مختصة بالشمس ، فجعلها كالصادرة منها ، فذكرها بصيغة الفعل ، لأن صيغة الفعل لا تطلق على من لا يصدر منه الفعل ، فلا يقال : يخيط ولا يكون تصدر منه الخياطة، وأما حركة القمر فليست مختصة بكوكب من الكواكب ، بل الكل فيها مشترك بسبب حركة فلك لا يختص بكوكب ، فالحركة ليست كالصادرة منه ، فأطلق عليها اسم الفاعل ؛لأنه لا يستلزم صدور الفعل ، يقال : فلان خياط وإن لم يكن يخيط "(١).

وللعلامة البقاعى وجهة نظر أخرى فى العدول من صيغة الفعل يسبق إلى صيغة اسم الفاعل سابق وهى أنه " لو قيل يسبق لاختل المعنى لإيهامه أنه لا يتقدمه أصلا "(٢).

ومما جاء فى هذا السياق ذاته قوله تعالى : (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥) مِن نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى)(٣)

(١) اللباب في علوم الكتاب المؤلف: أحمد أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني ٢٢١/١٦ المحقق: الشيخ عادل عبد الموجود ،والشيخ علي محمد معوض الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.

(٢) نظم الدرر ١٣٢/١٦

(٣) سورة النجم من الآية ٤٣ إلى الآية ٥٠

فهذه الآيات تتحدث عن بعض دلائل قدرته – عز وجل – فى خلقه ،وهى كما يقول الرازى :" مثبتات لمسائل يتوقف عليها الإسلام من جملتها قدرة الله تعالى، فإن من الفلاسفة من يعترف بأن الله المنتهى ، وأنه واحد ، لكن يقول :هو موجب لا قادر ، فقال تعالى ، هو أوجد ضدين ،الضحك والبكاء فى محل واحد ، والموت والحياة ، والذكورة والأنوثة فى مادة واحدة ، وإن ذلك لا يكون إلا من قادر "[١]

ومن أجل إثبات هذه القدرة جاء سياق الآيات مبنياعلى أسلوب الطباق بذكر إيجاد الشئ وضده ، وفى هذ الطباق يقول صاحب الصناعتين " وهذه من المطابقة التى لا تجد فى كلام الخلق مثلها حسنا ، ولا شدة اختصار، على كثرة المطابقة فى الكلام "[٢]

والمتأمل فى نظم الآيات يجد استخدام ضمير الفصل عند إثبات الضحك والبكاء لله تعالى فقيل : (وأنه هوأضحك وأبكى) وكذا فى قوله : (وأنه هو أمات وأحيا) بينما تحول النظم وعدل عن مماثلة الضمير فى قوله : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) ، "ولم يقل : وأنه هو خلق كما قال : (وأنه هو أضحك و أبكى) ، وذلك لأن الضحك والبكاء ربما يتوهم متوهم أنه بفعل الإنسان ، وفى الإماتة و الإحياء وإن كان ذلك التوهم بعيدا لكن ربما يقول به جاهل ، كما قال من حاج إبراهيم الخليل عليه السلام ،حيث قال : (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيت)[٣] فأكد ذلك بذكر الفصل، وأما خلق الذكر والأنثى من النطفة فلا يتوهم أحد أن يفعله أحد من

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٩ /٢٧٩

(٢) كتاب الصناعتين المؤلف، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ٢٦٠ الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت عام النشر: ١٤١٩ه.

(٣) سورة البقرة من الآية ٢٥٨

الناس، فلم يؤكد بالفصل ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (وأنه هو أغنى وأقنى) حيث كان الإغناء عندهم غير مستند إلى الله تعالى ، وكان فى معتقدهم أن ذلك بفعلهم كما قال هارون: (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي) [١]ولذلك قال : (وأنه هو رب الشعرى) لأنهم كانوا يستبعدون أن يكون رب محمد هو رب الشعرى ، فأكد فى مواضع استبعادهم النسبة إلى الله تعالى الإسناد ،ولم يؤكده فى غيره "[٢]

فالعدول عن المماثلة بالضمير فى آية : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) "لأنها لامطمع فيها بالمشاركة، بخلاف الأولى فإنه ربما يظن أو يتوهم فيها المشاركة "[٣] ، وفى مجئ الضمير فى الإحياء والإماتة ، والعدول عن مماثلته فى خلق الذكر والأنثى يقول الدكتور أبو موسى :"ولا يبعد عندى أن يكون للرد على من ينكرون الإحياء بعد الإماتة ، ثم لم يأت بالضمير فى الآية التى بعدها ،لأن خلق الإنسان مما لا تظن الشركة مع الله فى فعله ، ثم إن المعاندين أنفسهم لم يتشددوا فى إنكار مخلوقيتهم لله ؛ لأنهم يقولون فى السماوات والأرض[٤]: (خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) [٥].

ثم يبين الدكتور أبو موسى سر مجئ ضمير الفصل فى قوله : |(وأنه هو أغنى وأقنى) فيقول : "لأنه مما يظن فيه الشركة ، وذلك واضح ، فقد يعتقد الإنسان أنه يقنى غيره ، أو أنه يقنى نفسه، فاستأصل ذلك ؛ ليقرر فى الضمير أن العطاء والمنع فى قبضة واحد لا شريك له "[٦]

---

(١) سورة القصص من الآية ٧٨
(٢) مفاتيح الغيب ٢٨٠/٢٩ ، ٢٨١
(٣) الطراز ١٥/٢
(٤) خصائص التراكيب٨٣
(٥) سورة الزخرف من الآية٩
(٦) خصائص التراكيب ٨٣

وإذا كان ضمير الفصل أفاد اختصاص الله –عز وجل – بالأفعال التى جاء معها الضمير ، وعدم المشاركة فيها فإن الاكتفاء بالفعل وعدم تعديته إلى المفعول زاد من هذا الاختصاص وقواه ، ولذا يقول الإمام عبد القاهر : " المعنى هو الذى منه الإحياء والإماتة ، والإغناء والإقناء ، وهكذا كل موضع كان القصد فيه أن تثبت المعنى فى نفسه فعلا للشئ ، وأن تخبر بأن من شأنه أن يكون منه ، أو لا يكون إلا منه ،أو لا يكون منه ، فإن الفعل لا يعدى هناك ؛ لأن تعديته تنقض الغرض وتغير المعنى"(١)

إذا فمجئ الضمير فى الآيات له مقاصده وأسراره ، والعدول عن مماثلته ومجيئه –أيضا – له لطائفه ونكاته، مما يثبت دقة النظم القرآنى وإعجازه ، وأن لكل كلمة حيث وضعت أسرارا ودقائق ، وحين تحذف الكلمة –أيضا – فللحذف أسرار ودقائق .

سابعا : فى الدعوة والترغيب فى الأعمال الصالحة.

قال تعالى : (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)(٢)

جاءت هذه الآية فى سياق دعوة مؤمن آل فرعون لقومه وقد بدأ هذا السياق بقوله تعالى :(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)(٣) وقد جاءت هذه الآية التى معنا لترغب فى الآخرة بعد التنفير من الدنيا الذى جاء فى قوله :(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)(٤)

---

(١) دلائل الإعجاز ١٥٥
(٢) سورة غافر الآية ٤٠
(٣) سورة غافر الآية ٣٨
(٤) سورة غافر الآية ٣٩

وهذه الآية التى معنا جعلها الرازى من أصول علوم الشريعة الكبيرة ، وذلك فيما يتعلق بأحكام الجنايات ؛ لأن هذه الآية تقتضى أن يكون المثل مشروعا، وأن يكون الزائد عن المثل غير مشروع "[١].

ففى الآية بيان لعدل الميزان الإلهى ، بل إن شئت قل بيان لفضله على عباده الذى لا يماثله فضل ، حيث جعل – سبحانه – جزاء السيئة بمثلها ، بينما تفضل عليهم فى جزاء الأعمال الصالحة بزيادة ليس لها حدود تقف عندها ، فهى زيادة دون حساب أو تقدير .

ولإظهار هذا الفضل الذى من الله به على عباده تحول السياق وعدل عن مماثلة ما جاء من نظم فى بيان جزاء صاحب السيئة ، ففى بيان هذا الجزاء قيل: (فلا يجزى إلا مثلها)، أما فى جزاء العمل الصالح فلم يأت بلفظ الجزاء أو المثل، وإنما عدل إلى قوله : (فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) فذكر فى جزاء العمل االصالح دخول الجنة مباشرة ، مع أنه لم يرد ذكر النار مع صاحب السيئة ، وذلك لأن المقام مقام إظهار لفضل الله وكرمه على عباده ، فناسب ذلك ألا تذكر العقوبة ، بينما ذكر فى العمل الصالح مآل صاحب العمل الصالح ومكانه وهو الجنة.

ولما كان المقام مقام إظهار المنن والفضل منه –سبحانه وتعالى– عدل السياق فى بيان جزاء العمل الصالح عن مماثلة ما جاء فى النظم المقابل فى جزاء صاحب السيئة ، فقد جاء فى مقابلة (فلا يجزى إلا مثلها) قوله :(يرزقون فيها بغير حساب) فقد حدد لأصحاب السيئة الجزاء وجعله بالمثل ، بينما لم يحدد الجزاء لصاحب العمل الصالح ،ولم يقيده ، بل جعله مطلقا دون حدود .

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٧ /٥١٨

وقد كشف العلامة الزمخشرى عن بعض أسرار هذا العدول عن المماثلة فى النظم بين الجزاءين فقال : " فلا يجزى إلا مثلها ، لأن الزيادة على مقدار جزاء السيئة قبيحة ، لأنها ظلم ، وأما الزيادة على مقدار جزاء الحسنة فحسنة ، لأنها فضل .. ويدخلون بغير حساب واقع فى مقابلة إلا مثلها يعنى أن جزاء السيئة لها حساب وتقدير ؛ لئلا يزيد على الاستحقاق ، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب ، بل ماشئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة "[١].

ففى عدول النظم فى الآية عن المماثلة فى بيان جزاء الفريقين دليل " على أن جانب الرحمة والفضل راجح على جانب القهر والعقاب " [٢] ففى جانب السيئة كان الجزاء هو المثل ، أما فى جانب السيئة فكان الجزاء (بغير حساب) ففى هذا التذييل كناية عن سعة رزقه -عز وجل - ووفرة نعمه ، وعظم فضله ومننه على عباده .

وتناسبا مع مقام الفضل تجد النظم القرآنى فصل فى بيان جزاء العمل الصالح فقال : (من ذكر أو أنثى) بينما عدل النظم عن مماثلة هذا التفصيل فى بيان جزاء صاحب السيئة ، وكأن الحديث عن جزاء السيئة جاء عابرا موجزا تناسبا مع المقام الوارد فيه الحديث ، وجاء مفصلا مع أصحاب الأعمال الصالحة، لبيان شمول فضل الله على عباده جميعا الذكر منهم والأنثى ، فليست القضية فى ميزان العدل الإلهى بالنوع ، وإنما القضية فى العمل ذاته ، فكم من أنثى بعملها وتقواها فاقت كثيرا من الرجال ، ففى ميزان الله – عز وجل – ليس هناك مفاضلة بين ذكر وأنثى إلا بالتقوى ، وكأن الآية فيها رد على المجتمعات الجاهلية التى كانت تخص الذكور بالتفضيل.

---

(١) الكشاف ١٦٨/٤

(٢) مفاتيح الغيب ٥١٩/٢٧

ثامنا : فى تسلية النبى – صلى الله عليه وسلم - عن إعراض قومه عن الدعوة.

قال تعالى :(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ)(١)

فبعد أن أمر الله –عز وجل – عباده بالاستجابة له ،وحذرهم من اليوم الآخر فى قوله :(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِن قَبْلِ أن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ)(٢) ترك خطاب الناس إلى خطاب النبى– صلى الله عليه وسلم– بهذه الآية" لما فيها " من التعريض بتسلية الرسول – صلى الله عليه وسلم – على ما لاقاه من قومه، فالمعنى :لا يحزنك إعراضهم ، فقد أعرضوا عن نعمتى وعن إنذارى"(٣). ففى خطاب النبى – صلى الله عليه وسلم – بهذه الآية إزالة لهمه ، وتخفيف لآلامه وحزنه، لأن الله يعلم مدى حرصه على هداية قومه ، ويعلم أن إعراضهم عنه وتكذيبهم له سيصيبه بالحزن والألم .

يربط العلامة البقاعى بين هذه الآية وما قبلها فيقول : : "لما أنهى ما قدمه في قوله {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ}(٤) نهايته، ودل عليه وعلى كل ما قادته الحكمة في حيزه حتى لم يبق لأحد شبهة في شيء من الأشياء، كان ذلك سبباً لتهديدهم على الإعراض عنه، وتسلية رسولهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال– معرضاً عن خطابهم إيذاناً بشديد الغضب–: {(فإن أعرضوا)"(٥)

---

(١) سورة الشورى الآية ٤٨

(٢) سورة الشورى من الآية ٤٧

(٣) التحرير والتنوير ١٣٣/٢٥

(٤) سورة الشورى من الآية ١٣

(٥) نظم الدرر٣٤٨/١٧

والمتتبع لسياق هذه الآية يجد أن النظم القرآنى عبر فى جانب الرحمة بلفظ الإذاقة، بينما عدل النظم فى جانب السيئة عن المماثلة ، فلم يستخدم اللفظ ذاته وإنما استخدم لفظ الإصابة فقيل :(وإن تصبهم) وذلك لأن المتتبع للفظ الإصابة فى القرآن الكريم يجده غالبا ما يستخدم فى الشر، ولذا عدل النظم إلى لفظ الإصابة لما فيه من الدلالة على وقوع الضرر ولحوق الشر بهم .

ولما عدل النظم عن المماثلة فى استخدام اللفظ عدل – أيضا – عن المماثلة فى الإسناد ، فقد أسند فعل الإذاقة إلى الله –سبحانه وتعالى – فقيل : (أذقنا) أما فى الإصابة فلم يقل أصبنا وإنما قيل: (تصبهم بما قدمت أيديهم)| فجعل الإصابة واقعة منهم ، وحادثة بسبب ما قدموه من أعمال، ولذا يقول البيضاوى:" وإقامة علة الجزاء مقامه، ووضع الظاهر موضع المضمر في الثانية، للدلالة على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعمة"(١).

وفى هذا العدول عن المماثلة اللفظية – أيضا- أدب رفيع ، وبلاغة عالية، حيث أسند الخير إلى الله –عز وجل – ولم يسند ماهو فى اعتقاد الإنسان شر إليه ، وإنما أسند إلى الإنسان ذاته.

وكما عدل النظم عن المماثلة اللفظية ،وعن المماثلة فى الإسناد عدل – أيضا- عن المماثلة فى الشرطية، فاستخدم(إذا) مع الإذاقة ، وعدل عنها، ولم يأت بها مع الإصابة واستخدم(إن) وفى هذا دلالة على أن الكثير والغالب والمحقق الوقوع هو الخير ، بينما القليل والنادر هو وقوع الشر.

فمجئ إن فى جانب السيئة مع تنكير السيئة فيه دلالة على ندرة وقوعها، ومنه قوله تعالى : (فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٨٤/٥

بِمُوسَى وَمَن مَعَهُ)[١] "بلفظ إذا فى جانب الحسنة ، حيث أريدت الحسنة المطلقة لا نوع منها ، لكون حصول الحسنة المطلقة مقطوعا به كثرة وقوع واتساعا ، وبلفظ إن فى جانب السيئة ،مع تنكير السيئة ،إذ لا تقع إلا فى الندرة بالنسبة إلى الحسنة المطلقة ولا يقع إلا شئ منها "[٢]

وقد عدل النظم عن مماثلة المقابل- أيضا- فى الأفعال ، فقد جاء فعل الإذاقة بصيغة الماضى ، بينما جاء فعل الإصابة بصيغة المضارع ، وذلك يدل على تحقق وقوع الخير للإنسان ، وقلة إصابته بالشر.

ومما يؤيد- أيضا – قلة وقوع السيئة بالنسبة لحدوث النعمة أنك تجد النظم عدل عن المماثلة فى التعليل ، فقد علل إصابة السيئة بقوله : (بما كسبت أيديهم) ولم يعلل إصابة النعمة فاكتفى بقوله : (وإناإذا أذقنا الإنسان منا رحمة) وفى هذا يقول العلامة أبو السعود: " وإسناد الإصابة إلى السيئة ،وتعليلها بأعمالهم؛ للإيذان بندرة وقوعها ، وأنها بمعزل عن الانتظام فى سلك الإرادة بالذات"[٣].

---

(١) سورة الأعراف من الآية١٣١

(٢) مفتاح العلوم المؤلف: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور ٢٤١/١،الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ (بتصرف) و ينظرالإيضاح في علوم البلاغة المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزوينى المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي ١١٧/٢ الطبعة: الثالثة ، وخصائص التراكيب ٣٢٣/١

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ٣٦/٨ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

وهذا العدول عن مماثلة المقابل فى الآية يعكس ما يقصده النظم القرآنى من بيان الفوارق الكبيرة بين الحا لين المتقابلين فى الآية ، حال الإنسان عند الإصابة بالرحمة ، وحاله عند الإصابة بالسيئة، فطباع الإنسان فى الحالين مختلفة كل الاختلاف، ففى الحالة الأولى فرح وبطر ، وفى الحالة الثانية قنوط ويأس .

والذى يتتبع نظائر هذه الآية فى القرآن يجد أن النظم فى هذه الآية عدل عن مماثلة نظائرها ، فلم يستخدم النظم القرآنى ضمير الذات المنفصل (إنا) إلا فى هذه الآية ، ففى غير هذه الآية جاء التعبير : (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ) (١)، (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا) (٢) أما هذه الآية فقد أخذت نسقا مختلفا ، فجاء التعبير فيها بضمير الذات (وإنا إذا أذقنا) وفى هذا يقول الطاهر بن عاشور: " وابتداء الكلام بضمير الجلالة المنفصل مسندا إليه فعل دون أن يقال: وإذا أذقنا الإنسان إلخ ، مع أن المقصود وصف هذا الإنسان بالبطر بالنعمة ،وبالكفر عند الشدة ؛ لأن المقصود من موقع هذه الجملة هنا تسلية الرسول – صلى الله عليه وسلم –عن جفاء قومه وإعراضهم" (٣).

ويعلل الطاهر بن عاشور عدول نظم الآية هنا عن مماثلة نظائرها فيقول: " ولهذا تجد نظائر هذه الجملة فى معناها مفتتحا بمثل هذا الضمير ؛ لأن موقع تلك النظائر لا تماثل موقع هذه، وإن كان معناهما متماثلا ، فهذه الخصوصية خاصة بهذه الجملة "(٤).

---

(١) سورة يونس من الآية ٢١
(٢) سورة الروم من الآية ٣٦
(٣) التحرير والتنوير ١٣٣/٢٥
(٤) المصدر السابق ٢٥ /١٣٤

فالعدول عن المماثل داخل نظم الآية كان له لطائفه ودقائقه ، وكذلك عدول نظم الآية عن مماثلة نظائرها فى القرآن الكريم كان له علله ومقاصده ،مما يؤكد إعجاز هذا النظم ،ووصول كل حرف فيه ،وكل كلمة ،وكل جملة إلى أعلى درجات الدقة والبلاغة فى الاستعمال .

ومما جاء فى سياق تسلية النبى – صلى الله عليه وسلم – قوله تعالى : (ولله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)(١)

فهذه الآية جاءت معطوفة على قوله : (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى) (٢) وجاء قوله :(ليجزى) تعليلا لقوله :(ولله ملك السماوات والأرض) فقد "جعل الجزاء علة لثبوت ملك الله لما فى السماوات والأرض ، ومعنى هذا التعليل أنه من الحقائق المرتبطة بثبوت ذلك الملك ارتباطا أوليا فى التعقل والاعتبار لا فى الإيجاد ، فإن ملك الله لما فى السماوات وما فى الأرض ناشئ عن إيجاد الله تلك المخلوقات ، والله حين أوجدها عالم أن لها حياتين ،وأن لها أفعالا حسنة وسيئة فى الحياة الدنيا ، وعالم أنه مجزيها على أعمالها بما يناسبها جزاء خالدا فى الحياة الآخرة ، فلا جرم كان الجزاء غاية لإيجاد ما فى الأرض ، فاعتبر هو العلة فى إيجادهم ، وهى علة باعثة يحتمل أن يكون معها غيرها"(٣).

والآية فيها تسلية للنبى – صلى الله عليه وسلم – وتخفيف لحزنه من إعراض قومه عن دعوته ، وعدم استجابتهم له، وهى فى الوقت ذاته تبين عدل الله –عز وجل – فى مجازاته للناس ، المحسنين منهم والمسيئين ، ولبيان عدم

---

(١) سورة النجم الآية ٣١
(٢) سورة النجم من الآية ٣٠
(٣) التحرير والتنوير ١٢٠/٢٧

المماثلة فى الجزاء سلك المساق فى الآية طريق العدول عن المماثلة فى النظم فى بيان جزاء الفريقين ، فجاء فى حق المسئ بالسببية ،فقيل : (بما عملوا) وعدل عن مماثلته فى حق المحسنين ، ولم يقل : بما عملوا ، وإنما قال بالحسنى ، وفى هذا التحول الأسلوبى والعدول عن المماثلة "لطيفة ، لأن جزاء المسئ عذاب ، فنبه على ما يدفع الظلم ،فقال :لا يعذب إلا عن ذنب ، وأما فى المحسن فلم يقل: بما عملوا؛ لأن الثواب إن كان لا على حسنة فيكون فى غاية الفضل ، فلا يخل بالمعنى هذا إذا قلنا :الحسنى ، هى المثوبة الحسنى ، وأما إذا قلنا: الأعمال الحسنى ففيه لطيفة غير ذلك ، وهى أن أعمالهم لم يذكر فيها التساوى"(١).

وكما عدل النظم فى الآية عن المماثلة عدل عن المقابلة ، لأن حق المقابلة أن يقال : ليجزى الذين أساءوا بإساءتهم ، وذلك لمقابلة الحسنى فى (ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) وإنما عدل النظم عن المقابلة هنا إلى قوله : (بما عملوا) حتى لا تنسب الإساءة إلى الله –عز وجل – حتى ولو كانت جزاء لأعمالهم ، وفى هذا من الأدب الرفيع والبلاغة العالية ما فيه ، هذا بالإضافة إلى ما فيه من بيان عدل الله –تعالى– فهو لا يظلم عباده ، وإنما يجازيهم على قدر أعمالهم ، فهو لا يسئ إليهم، وإنما الإساءة تقع من العبد ذاته .

وفى هذا يقول صاحب إعراب القرآن :" فإن صحة المقابلة فى هذا النظم أن يقال: ليجزى الذين أساءوا بالإساءة ، حتى تصح مقابلته بقوله : (ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) ، لكن منع من ذلك التزام الأدب مع الله –سبحانه – فى إسناد فعل الإساءة إليه"(٢).

هكذا تظهر دقة النظم القرآنى فى الجمع فى الآية بين العدول عن المماثل والعدول عن المقابل ، فكل منهما له نكاته وأسراره ودقائقه التى لا تتأتى بدونه.

---

(١) المصدر نفسه ٢٦٨/٢٩

(٢) إعراب القرآن وبيانه ٤٥/٩

تاسعا : فى الحديث عن اليوم الآخر وجزائه

قال تعالى : (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ)[١]

جاءت هذه الآيات فى سياق الحديث عن اليوم الآخر وما به من أهوال وحساب ، وذلك ضمن آيات سورة القارعة التى بدأت ببيان هول هذا اليوم وعظم شأنه عن طريق التكرار والاستفهام فى قوله : (القارعة . ما القارعة . وما أدراك ما القارعة)[٢]و هذا الحديث عن اليوم الآخر فى هذه السورة جاء امتدادا للحديث عن اليوم ذاته فى آخر السورة السابقة لسورة القارعة ، وهى سورة العاديات ، وذلك فى قوله تعالى : (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ)[٣] ، وبعد أن بينت سورة القارعة عظم هذا اليوم وشدة هوله تحدثت عن أحوال الناس فى هذا اليوم عن طريق الإجمال فى قوله : (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)[٤]،ثم جاء تفصيل هذا الإجمال فى قوله : (فأما من ثقلت موازينه ..إلخ) ففى هذا "بيان إجمالى لتحزب الناس إلى حزبين ، وتنبيه على كيفية الأحوال الخاصة بكل منهما إثر بيان الأحوال الشاملة للكل "[٥]

والمدقق فى نظم الآيات يجد التحول الأسلوبى بالعدول عن مماثلة النظم فى جزاء من خفت موازينه ، فكان المتوقع من ظاهر النظم ، والمترقب عند القارئ أن يسير النظم فى وصف عيشة من خفت موازينه على ما جاء عليه فى

---

(١) سورة القارعة الآيتان ٦، ٧
(٢) سورة القارعة الآيات١،٢،٣
(٣) سورة العاديات الآيات ٩، ١٠ ،١١
(٤) سورة القارعة الآية٤
(٥) إرشاد العقل السليم ١٩٣/٩

وصف العيشة المقابلة ، وهى عيشة من ثقلت موازينه ، فقد وصفت عيشة من ثقلت موازينه بقوله : (فى عيشة راضية) وكان حق المماثلة فى النظم أن توصف عيشة من خفت موازينه بالسخط وعدم الرضى ، كأن يقال مثلا فهو فى عيشة ساخطة ، أو غير ذلك مما يدل على سوء العيشة ونكدها وتنغيصها، وذلك تحقيقا لمقابلة العيشتين ، عيشة من ثقلت موازينه ، وعيشة من خفت موازينه ، كما حصلت المقابلة بين ثقل الموازين وخفة الموازين ، وقد تحول السياق وعدل هنا عن هذه المماثلة فى بيان جزاء من خفت موازينه ، فلم يجر ذكر العيشة ، ولم يأت وصفها كما جاء فى الجزاء المقابل ، وهو جزاء الفريق الأول.

وفى هذا التحول فى السياق ، والعدول عن المماثلة فى النظم بيان لاختلاف حال الفريقين، وعدم التماثل والتشابه بينهما ، وكأن هذا الاختلاف فى النظم يبرز ويظهر اختلاف الحال ،واختلاف الجزاء ، فالفرق بينهما شاسع ، والبون بينهما بعيد ، والجزاء مختلف كل الاختلاف ، فليس بينهما أدنى تشابه ، كما أن فى العدول عن ذكر العيشة ووصفها فى جانب من خفت موازينه عدم اعتداد بهذه العيشة ؛ لأنها عيشة ساخطة منغصة يتمنى الإنسان النجاة منها ، ولذا لم يعتد بكونها عيشة ،ولم يرد النص عليها فى السياق .

وقد جعل صاحب نظم الدرر الآية من قبيل الاحتباك ، حيث كان"ذكر العيشة أولا دليلا على حذفها ثانيا ، وذكر الأم ثانيا دليلا على حذفها أولا "[(١)].

ولا أتفق مع صاحب نظم الدرر هنا فى جعل الكلام من قبيل الاحتباك ،لأنه إذا استقام كون ذكر العيشة أولا يدل على حذفها ثانيا، فلا يستقيم تقدير حذف الأم أولا بذكر الأم ثانيا ، وإذا قدر لفظ الأم مع صاحب العيشة الراضية، فبم توصف الأم حينئذ؟ أرى أن هذا التقدير لا يستقيم.

---

(١) نظم الدرر ٢٢/٢٢٣،٢٢٤

وقد وصفت العيشة بما يدل على نعيمها وذلك فـــى قولـــه : (راضـــية) والعيشة فى الحقيقة لا يقع منها رضا ،وإنما الذى يرضى هو صاحب العيشـــة ، والعيشة تكون مرضيا عنها، فإسناد الرضا إلى العيشة إسناد إلى غير ماهو له ، فالكلام من قبيل المجاز العقلى.

وفى هذا المجاز دليل على شدة النعيم ، وعلى قوة الإحساس بالرضا بهذه العيشة ، وعلى شمول الرضا لها .

وفى مقابل الوصف بالرضا تحول النظم وعدل فى جزاء صاحب الشر إلى قوله : (فأمه هاوية) ، وفى التعبير بلفظ الأم دلالة على الإيواء والسكن والملجأ، فالهاوية هى "التى تؤويه وتضمه إليها ، كما يقال للأرض أم، لأنها تقصد لذلك ، ويسكن إليها كما يسكن إلى الأم ،وكذا المسكن ،وهو يفهم أنه مخلوق منها ،غلب عليه طبع الشيطان لكون العنصر النارى أكثر أجزائه "(١).

والكلام فى قوله : (فأمه هاوية) من قبيل الاستعارة التمثيلية فهو " تمثيل لحال من خفت موازينه يومئذ بحال الهالك فى الدنيا ؛ لأن العرب يكنون عن حال المرء بحال أمه فى الخير والشر، لشدة محبتها ابنهـــا ، فهـــى أشـــد ســـرورا بسروره، وأشد حزنا بما يحزنه"(٢)

هكذا كان للعدول عن المماثل فى سياق الآيات دلالاته ومقاصده ومغازيـــه وأسراره ، فما يستفاد من قوله : (فأمه هاوية) من الدلالة على شقاء العيشة ، وسوء الحال ،وبؤس المنقلب والمصير أقوى مما يستفاد من مجئ الـــنظم علـــى المماثلة بوصف عيشة صاحب الشر بما يقابل وصف عيشة صاحب الخير، فلـــو قيل فى حق من خفت موازينه، فهو فى عيشة ساخطة ،أو غير ذلك من أوصاف هذه العيشة ما كان الوصف بهذه القوة التى جاء عليها النظم فى الآية .

---

(١) المصدر نفسه ٢٢/٢٢٣

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥١٤

الخاتمة:

الحمد لله الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، الذى أتم علينا النعمة ، وأكمل لنا الدين ، وختم الأنبياء بنينا محمد ، وجعله سيد الأنبياء والمرسلين ، صلوات ربى وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد:

فهذه أهم ثمار البحث ونتائجه التى توصل إليها بعد الدراسة:

- أثبت البحث أن مصطلح العدول من المصطلحات والمفاهيم الضاربة بجذورها فى التراث البلاغى ، وليس من المفاهيم الحديثة كما يدعى المنتمون إلى المدارس النقدية الحديثة كالأسلوبية وغيرها.
- ظهر من خلال البحث أن كثيرا من المصطلحات الحديثة التى يطلقها أصحاب المدارس النقدية الحديثة مفاهيمها موجودة فى التراث العربى، وما يفعلونه هو تحوير المصطلحات وتغييرها، محاولين بذلك تضليل العقول بدعوى التطوير، والتخلص من الجمود ، ومعظم مصطلحاتهم هى ترجمة حرفية لماهو موجود فى الثقافة الغربية ، ولذا وجدت لديهم مصطلحات لا تتناسب مع ثقافتنا العربية ، مما حدا ببعض الباحثين أن يصفها بأنها موسومة بالخروج عن الأخلاق.
- تبين من البحث أن أكثر السياقات التى يأتى فيها أسلوب العدول عن المقابل والمماثل هى السياقات التى يتحدث فيها النظم القرآنى عن الصور المتقابلة ، كالحديث عن جزاء الخير والشر ، وكالحديث عن الطبائع المتقابلة للنفس الإنسانية،، وكالحديث عن صور النعيم والشقاء فى اليوم الآخر، إلى غير ذلك من الصور المتقابلة.
- أثبت البحث دقة النظم القرآنى وإعجازه فى التحول الأسلوبى بالعدول عن المقابل والمماثل ، فالنظم القرآنى لا يخضع لما يتطلبه ظاهر السياق ، أو لما

يتوقعه ويترقبه السامع أو القارئ ، وإنما يخضع لما تقتضيه المعانى ،وتطلبه المقاصد ، وما يؤدى الأهداف المرجوة فى أبلغ العبارات وأوفاها.

- هناك سمات بلاغية عامة تكمن وراء أسلوب العدول عن المقابل والمماثل فى كل السياقات ، وهى إيجاز اللفظ مع كثرة المعانى ، وذلك لأن الأسلوب المعدول إليه يحمل فى طياته وفى مضامينه المعانى التى يحملها المعدول عنه ، مع وجود دلالة زائدة لا يمكن أن يقوم بها أو يؤديها الأسلوب الأول المعدول عنه ، هذا بالإضافة إلى تنشيط ذهن السامع أو القارئ ، ولفت انتباهه إلى المعنى المعدول إليه، وتبقى مع تلك السمات العامة للأسلوب داخل سياقاته ومقاماته ومساقاته دلالاته ومقاصده الخاصة المرتبطة بهذا السياق.
- ظهر من خلال البحث أن أسلوب العدول عن المقابل والمماثل من أساليب خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر التى لم يتطرق إليها البلاغيون ،ولم يفردوها بدراسة مستقلة كما صنعوا مع غيره من الأساليب، و هو –أيضا – من الأساليب التى غابت عن الدارسين لبلاغة العدول فى القرآن الكريم رغم وجود توجيهات متناثرة للمفسرين فى كتبهم لبلاغة هذا الأسلوب ، وهى توجيهات تدل على إدراكهم السديد لهذا الأسلوب وأبعاده ومراميه ومقاصده .
- ساهم البحث فى الكشف عن بعض أسرار النظم القرآنى الذى لاتنقضى عجائبه، والتى تبين أنه ما زال غضا بكرا ،وأن ما قدم فيه من دراسات هو قليل من كثير، وأن كثرة النظر فيه والتدبر لآياته ونظمه يكشف عن الجديد الذى لم تتوصل إليه الدراسات ، ولم تمسه الأقلام.
- اتضح من خلال التحليل البلاغى للآيات فى البحث أن أكثر الأساليب البلاغية التى يمكن أن تلتقى مع أسلوب العدول عن المقابل هو أسلوب الاحتباك ، لمافيه من الحذف المقابلى ، فهذا الحذف قد يأتى مع أسلوب العدول عن المقابل ، وحينئذ يتآزر الأسلوبان ويتداخلان لتحقيق الإيجاز فى الكلام مع وفرة المعانى.

فهرس المصادر والمراجع

- الاتجاه الأسلوبى فى النقد العربى د/شفيع السيد ، طبعة دار الفكر العربى القاهرة ١٩٨٦م.
- الإتقان في علوم القرآن المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت
- أسباب نزول القرآن المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدى النيسابوري ، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان الناشر: دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢
- أسرار البلاغة لأبى بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى ، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى بالقاهرة- دار المدنى بجدة
- أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية د/حسن طبل ، طبعة دار الفكر العربى ١٤١٨- ١٩٩٨م .
- الأسلوب والأسلوبية د/عبد السلام المسدى ، طبعة الدار العربية للكتاب ،الطبعة الثالثة.
- إعجاز الفرآن لأبى بكر الباقلانى محمد بن الطيب ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف – مصر- الطبعة الخامسة ١٩٩٧م.
- إعراب القرآن وبيانه المؤلف : محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، (دار اليمامة –

دمشق – بيروت) ، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت) الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ.

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ،المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن محمد الشيرازي البيضاوي المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ
- الإيضاح في علوم البلاغة المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزوينى، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي الطبعة: الثالثة.
- البحر المحيط لأبى حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الأندلسى ، تحقيق صدقى محمد جميل ،دار الفكر – بيروت –١٤٢٠ه.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المؤلف: عبد المتعال الصعيدي ،الطبعة: السابعة عشرة: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- التحرير والتنوير المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤م.
- تفسير جزء عم المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين، إعداد وتخريج : فهد بن ناصر السليمان الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- تفسير الشيخ الشعراوى ، المؤلف: محمد متولي الشعراوي ، الناشر: مطابع أخبار اليوم.
- تفسير المراغي: المؤلف أحمد بن مصطفى المراغي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي ، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠.
- الجامع لأحكام القرآن ، المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، الناشر : دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة : الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤.
- جماليات النص القرآنى (دراسة أسلوبية فى المستوى التركيبى) د/ عبد الله خضر حمد ،طبعة دار القلم –بيروت –لبنان.
- حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري، دار النشر: دار صادر – بيروت .
- الخصائص ، تأليف أبى الفتح عثمان بن جنى ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الرابعة .
- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني المؤلف: محمد محمد أبو موسى ، الناشر: مكتبة وهبة الطبعة: السابعة.
- دلائل الإعجاز المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر ،الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- روح البيان ، المؤلف: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولى أبو الفداء الناشر: دار الفكر – بيروت.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسى ، المحقق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٥ ه.
- السيرة النبوية ، المؤلف ،عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى أبو محمد جمال الدين ، تحقيق مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبيارى ، وعبد الحفيظ الشلبى، مطبعة مصطفى بابى الحلبى وأولاده مصر، الطبعة الثانية ١٣٧٥ ه- ١٩٥٥م.
- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ليحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم الحسينى العلوى ، المكتبة العنصرية –بيروت –الطبعة الأولى ٥١٤٢٣ه.
- فتح القدير لمحمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكانى ، طبعة دار بن كثير ، ودار الكلم الطيب – دمشق –بيروت –الطبعة الأولى ٥١٤١٤ه
- كتاب الصناعتين ، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري ، المحقق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت عام النشر: ٥١٤١٩ه.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧.
- اللباب في علوم الكتابالمؤلف: أحمد أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني ، المحقق: الشيخ عادل عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م.

- لمسات بيانية المؤلف: فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي، وهى تفريغ لحلقات ومحاضرات مطبوعة ومرقمة آليا ومرفوعة على موقع الشاملة فيها اختلاف وزيادة عن الكتاب المطبوع بهذا الاسم.
- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير ، تحقيق أحمد الحوفى ، وبدوى طبانة ، دار نهضة مصر.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي ،المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المحقق: شعيب الأرنؤوط ، عادل مرشد وآخرون ، الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطى ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب المؤلف: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، بن هشام ، المحقق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله الناشر: دار الفكر – دمشق الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م
- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي، الملقب بفخر الدين الرازي ،الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠.

- مفتاح العلوم المؤلف: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور ،الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعى الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- النكت والعيون ، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي ،المحقق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان
- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه المؤلف : أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي المحقق : مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة ، بإشراف أ.د : الشاهد البوشيخي الناشر : مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية– جامعة الشارقة الطبعة : الأولى ، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــــوع	الصفحة
١	**ملخص البحث**	٢٥٤٥
٢	Abstract	٢٥٤٦
٣	**المقدمة**	٢٥٤٧
٤	**التمهيد** : وفيه عرض لمفاهيم عنوان البحث، وهى على ترتيبها كالتالى:	٢٥٥٤
٥	**أولا** : مفهوم الظاهرة.	٢٥٥٤
٦	**ثانيا** : مفهوم التحول الأسلوبى .	٢٥٥٧
٧	**ثالثا:** مفهوم العدول وجذوره فى التراث البلاغى.	٢٥٥٩
٨	**المبحث الأول** التحول الأسلوبى بالعدول عن المقابل وسياقاته:	٢٥٦٥
٩	**أولا:** فى تهديد اليهود وتذكيرهم بيوم بدر.	٢٥٦٦
١٠	**ثانيا:** : فى الحديث عن دلائل قدرته ووجوده ووحدانيته	٢٥٧٠
١١	**ثالثا:** فى بيان أحوال الناس فى الآخرة.	٢٥٧٦
١٢	**رابعا:** فى الحديث عن أصناف الناس فى العبادة	٢٥٨١
١٣	**خامسا:** فى توجيه النبى فى مجادلته ومخاطبته للكفار	٢٥٨٤
١٤	**سادسا:** فى بيات أحوال الكفار وصفاتهم	٢٥٨٦
١٥	**سابعا:** فى الحديث عن طبائع النفس البشرية	٢٥٨٨

م	الموضـــــــوع	الصفحة
١٦	**المبحث الثانى** التحول الأسلوبى بالعدول عن المماثل وسياقاته	٢٥٩١
١٧	**أولا:** فى التحذير من اتخاذ اليهود والمنافقين بطانة.	٢٥٩٢
١٨	**ثانيا:** فى التحذير من التفرق والاختلاف	٢٥٩٤
١٩	**ثالثا:** فى الحديث عن الأمم السالفة	٢٥٩٧
٢٠	**رابعا:** فى الحث على اللين والتلطف فى الدعوة.	٢٥٩٩
٢١	**خامسا:** فى الحث على تبليغ الدعوة	٢٦٠١
٢٢	**سادسا:** فى سوق الأدلة على قدرة الله ووحدانيته	٢٦٠٤
٢٣	**سابعا:** فى الدعوة والترغيب فى الأعمال الصالحة	٢٦٠٩
٢٤	**ثامنا:** فى تسلية النبى عن إعراض قومه عن الدعوة	٢٦١٢
٢٥	**تاسعا:** فى الحديث عن اليوم الآخر وجزائه	٢٦١٨
٢٦	**الخاتمة**	٢٦٢١
٢٧	**المصادر والمراجع**	٢٦٢٣
٢٨	**فهرس الموضوعات**	٢٦٢٩